ALEXANDRA.AHLAMONTADA.COM

منتدى مكتبة الإسكندرية

حكايات المدَندش

أحمد الشيخ

حكايات المدندش

في كفر عسكر

النّسّافة وزمانها

سوف أحكي لكم حكاية الست النسافة وعيالها قبل أن يحين الأجل المحتوم وينتهي العمر فينساها الناس أو يغيروا ترتيب أحداثها أو يصبح عاليها واطيها شأن كل شيء يفوت عليه الزمن الدوار أسرع من الساقية، والناس في كفرنا وكل الكفور المجاورة يولدون البغلة ويعملون من الحبة قبة، صحيح أنني منهم، من نفس ناس الكفر "الأزرق" لكنني أختلف عنهم، عشت وسطهم صحيح لكن لكي أتفرج عليهم قبل أن أفرجهم على أرواحهم، أقلد أصواتهم أو خطواتهم فيضحكون، حتى حضرة جناب العمدة الجديد يضحك عندما أقلد مشيته أو أتنحنح مثلما يفعل شيخ البلد العجوز في أنصاف الليالي، وربما أقلد لهم صوت الثور الهائج أو الجحشة طالبة العشر، أو أنادي مثلما يفعل رجب الأعور عندما يسرح في دروب الكفر بحثا عن فردة حلق مسلوتة من أذن طفلة أو بطة شردت فوق أسطح الدور وتاهت أو حتى صديري طيرته الريح، ينادي ويمني الخلق بالمكافأة الحلال، أنا حسنين المدندش، حلاق حمير الكفر ومداوي جراحها، طبال الكفر وزماره، رداح الكفر ونداب الموتى والمغدورين وكاتم أسرار النسوان، لا خلفة ولا عيل وأنا الذي ولدت المواشي، تتفتح الأبواب إذا قصدتها، أتعشى وأشرب الشاي ولي من كل ذبيحة نصيب معلوم، ولساني حصاني المفلوت يوشك أن يرميني في الهلاك لولا لجام العقل، في طفولتي وصباي حفظت نصف كتاب الله وحملته على صدري، لكنني في صدر شبابي استدرت وانحرفت وسافرت ورجعت وقرأت كتب الأفندية وتلامذة المدارس، كنت أشحذها شحاذة أو أسرقها سرقة، أقرؤها وأداريها دون غرض معلوم، كتب عن الجن والناس والبلدان البعيدة وتواريخها، عن البحار والجبال وأنساب القبائل القديمة وسلالات الغجر، سافرت ورجعت، ومن حدود بلاد النوبة قبل التهجير حتى شطوط البحر المالح عرفت ناس وعرفني ناس، ورغم الفقر وقلة الحيلة معدود في الكفر ومحسوب حسابي، وأنا غرضي أن أحكي لكم حكاية النسافة، وأعرفها لمن لم يحضر أو يشهد أو يعايش مثلما فعلت، وأنا لا لي في الثور ولا في الطحين، غاية ما هناك أنني ضحكت في عبي مرة، كانت ضحكة عاقلة في الأول، وكان من الممكن أن تفوت مثل آلاف الضحكات التي فاتت، لكنها كبرت وزادت عن حدودها، مطها شيطان ومطها حتى جلجلت في أركان الدار وخرجت

للشارع، سرحت في دروب الكفر مثلما كان رجب الأعور نفسه يسرح في دروب الكفر، قال الناس للناس إن حسنين المدندش قد انخبط في عقله وأنه على جناب العمدة مسئولية طلب السراية الصفراء التي هي في العباسية أو التي هي في الخانكة، أنا نفسي قلت لنفسي إن العقل الموزون الساكت قد أصابته بالفعل لطشة غير معمول حسابها، وكنت أقف في أمان الله أمام جثة المرحوم رجب الأعور مشرفا على الولد ابن بحر الذي يغسله وبعينه الحولاء ينظر إلى الكفن المفتخر من الحرير الياباني سبع طاقات، لعلني فكرت أن الولد ابن بحر سوف "يسلته"من فوق جثة رجب الأعور بعد أن يدفنه، لعلني فكرت أن رجب الأعور الذي عاش عريانا وجوعانا أو هفتانا وفي بعض الأحيان مضروبا على قفاه أو مزغودا في صدره هو نفسه رجب الأعور الذي تجمع من أجله كل أكابر الكفر والكفور المجاورة بما في ذلك حضرات العمد، مسكينا عاش ومستورا من حيث لا يحتسب يموت، لو رأى نفسه لدقيقة واحدة وهو محاط بكل هذا الاهتمام لتخلص من فقر الدم والبلهارسيا ودود البطن وتلك الأمراض الأخرى المخفية التي كان يحملها ولا يعرفها أحد، لعلني فكرت في كل هذه الأشياء في لحظة واحدة فانفلتتت الضحكة، ولعلني قرأت في عيون الناس خوفهم، أراهن بكل ما تبقى من عمري أنهم جميعا كانوا يرغبون في الضحك ويكتمون الرغبة، ناس كفرنا "البرتقالي" تنقصهم الجرأة يا ناس، نقصت قدرتهم على أن يقولوا للأعور: أنت أعور، نقصت فيهم الرغبة في الضحك والفرح ونسيان الهم الراكز على القلوب، ولأنني ضحكت وحدي وفي حضرة كل أكابر الناحية فقد أبعدوني بالقوة الجبرية وأنا أضحك وأضحك، أتمثل وجه ابن النسافة وقد زاغت عيناه وانحنى قفاه. وأراه وقد ارتمى على الأرض بحثا عن مداس حضرة العمدة ابن العمدة "وأنا في عرضك وطولك، وأنا وقعت من السماء وأنت يا جناب حضرة العمدة تلقيتني، ما لي في الكفر غيرك، أنت أهلي وناسي وعزوتي إن كانت لي في الكفر عزوة"، وكلام مثل هذا كثير سمعته والعمدة جامد في مكانه لا يرد بخير ولا بشر، لا يعد ولا يرفض وكأنه يشجع الولد على الاستمرار، كل هذا رأيته مثلما رآه غيري لكنني ركبته على بعضه وزودت عليه ما كنت أعرفه عن النسافة وابن النسافة ولا يعرفه الناس فكبرت الضحكة والموت حاضر يحوم معلنا عن نفسه بالارتكاز على جثة رجب الأعور، وفي كفرنا وكل الكفور ينكتم الكل في حضور الموت، أشقى الأشقياء وأضعف الضعفاء، أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء يتساوون مثلما يتساوى الأتقياء والمفسدون في الأرض، كلهم كلهم يحصلون على الرحمة ودمعة الإشفاق، الغريب والقريب، العدو والحبيب، لكنني نسيت وضحكت، أضحكني ابن النسافة فأنساني الأصول، ويلزم أن أبين لكم أن موت رجب الأعور في هذا الوقت بالذات كان بكل الحسابات نكبة لعصام ابن النسافة، وقد علا نجمه في السنوات الأخيرة أكثر من كل من علا نجمهم، وكأنه الوحيد المسموح له بالامتلاك من بعد انعدام الملك، ثم تزويد حيز

الامتلاك ومعاودة تزويده في الأرض وعارف سر الزمن، يلاعب الكل ويكسب دائما، وأن أمه النسافة دعت له في ليلة قدر واستجابت السماء، وقال البعض الآخر أنه مجرد "هلفوت"بلا مبدأ باع كل شيء وفرط في كل شيء من أجل القرش وأنه لف ودار حول نفسه وحول الناس مثل حجر طاحونة مشروخ في أساسه وإن لم يلحظ الشرخ غير القلة القليلة التي قال بعضهم للبعض الآخر إن الحجر المشروخ الدائر لابد من لطشه أو كسره، وهاهي لطشة لا كانت معمول حسابها عنده ولا خطرت على بال أمه، تلك التي عاندت وعاندت وعاندت، ركبت رأسها ولم تستجب لرجاء الكبار أو الصغار، والعند في كفرنا "الزهري"يورث الكفر كما يقولون، العند يعمي المعاند فلا يلحظ ما هو أبعد من ظل قدمه، وليس في كل مرة تسلم الجرة كما تعرفون، يوم طلاق بنت زهيرة كان يوم، خرجت بقميص النوم، ولولا أن سترتها أمها بثوبها وشالها لشافها الناس وهي خارجة من دار النسافة نصف عريانة ويا مولاي كما خلقتني، تنازلت عن كل حقوقها، ذهبها وعزالها ومؤخر صداقها وحضانة الولدين، بل إنها قالت لرجال المجلس الملموم من ذوي الشوارب إنها على استعداد لأن تقص شعرها الذهبي الناعم وأن تهديه للنسافة أم الولد عصام إذا طلبته، وحقي برقبتي يا ناس، لعل المجلس الملموم والذي جاء ليشهد شعر بالحرج فأعفاها وإن كان لا يؤيد جرأتها في اتهام المرأة وابنها بالبخل ودناءة النفس، لكنها على كل حال وبحسابات أكثرية ناس كفرنا ضيعت حقوقها بكلام فارغ نطق به لسانها المفلوت ساعة غضب، وربما كان هذا الكلام الفارغ نفسه سببا في إسراع النسافة بإعادة تزويج الولد، اختارت بنت نفيسة وضحت بالكثير، استجابت لكل الطلبات وكأنها تنفي بما تدفعه عن نفسها تهمتي البخل ودناءة النفس، صحيح أن بنت نفيسة كانت في الإعدادية لكن ما قيمة الإعدادية إذا ظهر العريس المستور في كفرنا؟ قلت لكم في الأول أن الزمان دار واستدار، وأنه في كفرنا "الوردي"ارتفع نجم ناس وانطفأ سراج ناس، انكشف من كان في الأصل مستورا، وتغطى في غفلة منا من عاش عريانا خلال تلك السنوات الأخيرة التي تعد على أصابع اليد الواحدة، لكن الأمر لا يثبت على حال أبدا، وسبحانه علام الغيوب فمن كان يعلم أن زواج ابن النسافة من بنت نفيسة سوف ينتهي تلك النهاية التي ذكرتني "بدحديرة"الواطية أيام زمان، أيامها كان أشجع ولد فينا يحاول النزول على مهل فيجد نفسه يتدحرج غصبا حتى يصل إلى فراغ الواطية وأرضها التي غطاها النشع، ينعاص جلبابه ويجلس في شمسها حتى يجف ويفرك الثوب دون أن يفلح في إزالة كل الأثر مهما حاول، ربما لأن طين الواطية كان لا يخلو من عطن أخضر يلبد في نسيج أقمشة جلابيب العيال ولا يزول أبدا.

يوم وصول العبدة البربرية وعيالها زمام الكفر:

كان حر "بؤونة الحجر"يشويني، وكان حجر جلبابي المملوء بثمار الخيار يرطب قلبي ويشفيني، كان شيطاني قد أغراني في الظهر الأحمر فطاوعته وأعطاني، ساعدني على جمع خط الخيار من "مدادة" الحاج مصطفى، وكانت الدنيا من حولي ساكنة إلا من طنين الذباب السارح من ناحية المدافن، ومن وسط الشرد سمعت صوتها ينادي:

ـ إدلعدي ياللي فايت.

قلت لروحي "صوت غريب" قبل أن ألتفت وأراها بعودها النحيل وسمرة ملامحها التي تميل إلى السود أكثر، أسنانها منتظمة ومشرقة البياض، شيء مختلف يؤجل المشاوير المستعجلة، قلت وأنا أفرغ حجر جلبابي عند جذع الجميزة العجوز:

ـ نعمين.

وكنت أشرب من زير إبراهيم السقا المحطوط سبيلا لله والذي لا يساويه أي زير في كل الناحية في تبريد الماء أو الجوف وأسمعها تكلمني:

ـ يسترها معاك تدلني على دار شبل المنسي يا خويا.

نظرت فرأيت إلى جوارها طفلتين جميلتين، بياض بحمرة وشعر أسود مدهون بزبدة والعيون شاردة لغزالتين في الثانية والثالثة من العمر فقلت يا سبحان الله، وكان هناك في الناحية الأخرى بالقرب من كوم الخيار ولد في الخامسة بعينين مدورتين تنظران بجرأة بينما يقضم الفم من خيارة وفي القبضة الأخرى خيارة، أمتلكهما وتأكد من امتلاكهما والعبدة البربرية تقول بصوتها الخافت الذي يؤيد أكثر مما يحتج:

ـ يا وله..

ـ سيبيه.

قلت لها وأنا أتناول خيارتين وأمسحهما في ذيل جلبابي وأناولهما للبنتين المترددتين في الأخذ لولا التشجيع:

ـ غريبة يا ست؟

ـ غريبة وقريبة.. يستر عرضك ويقويك.

أقول لكم الحق، تعاطفت معها، كانت تبتسم ببشاشة وضعف فتبرق أسنانها القوية المنورة، وقلت لنفسي أنه من الممكن أن يعشق الرجل امرأة بسبب انتظام أسنانها وينسى أنها بربرية، ثم استعذت بالله من شياطين الظهيرة، قلت وأنا ألمح العربجي حسن عمارة يسوق البغلة المعاندة:

ـ لمي الخيار ويايا لجل ما نركب مع العربجي اللي جاي دهه.

شاورت لحسن عمارة فأوقف البغلة "الحرنانة" بعسر حتى ركبنا، وعندما ساقها سألني:

ــ على فين يا مدندش بالضيوف اللي ويالك؟

ــ دار شبل المنسي، وصلنا أنت بس لحد البوابة.

ــ أمال الخيار ده كله منين؟ بتاعك؟ دا لسة صابح بنواره.

ــ بتاعي وشاريه م البندر، ح أتاجر فيه يا جلاب البلاوي.

ــ وماله.. بتاعك بتاعك..

عند بوابة أولاد عوف كانوا في الأركان يحتمون من سخونة الشمس ببعض الظلال التي تكسو واجهات الدكاكين ومداخل الدور، نزلت وساعدت البربرية وعيالها على النزول بينما كان حسن عمارة يشير إلى الخلق وكوم الخيار، يكيدني ويدعوهم لمكايدتي:

ــ خيار المدندش، جايبه لكم مخصوص تبلوا ريقكم وتدعوا له، يعني هو شاريه بصدق؟ مد إيدك منك له وخذ.

كنت أنظر إلى كوم الخيار الذي يتناقص بسرعة، والبغلة المعاندة وقد طاوعت بالوقوف ثابتة، والبربرية وقد حملت الولد على كتفها وسحبت البنتين إلى ركن ظليل تنتظرني، قلت لحسن عمارة وأنا أشير للبربرية لتتبعني:

ــ اللي يتفضل م الرجالة توديه الدار ياللي ينحش أجلك.

سمعتهم يضحكون وسمعت تعليقاتهم التي تكشف سر خياري وشيطاني الذي أغراني وأعطاني ولكنه تخلى عني وما حماني، جاملت البربرية بكلام لا أذكره حتى وصلنا إلى باب الدار المواربة والغطسان مسافة درجتين سلم تحت مستوى الدرب، خبطت بالسقاطة الحديد فرأيت وجه أم المحمدي تنظر ناحيتي والبربرية والعيال وتأكل من خلال ما تبقى في فمها من أسنان مكسرة غير منتظمة:

ــ عاوز إيه مننا يا مدندش؟

ــ غريبة وبتسأل ع الدار يا أم المحمدي.. خبر إيه؟

ــ عاوزه إيه يا ختي؟، أنا لا أعرفك ولا شفتك قبل كدة.

ــ أنا مرات المرحوم فرج الله اللي مات في السد، ودول عياله.

بذلك ردت البربرية على أم المحمدي، وعلى غير توقع انسك الباب الكبير وسمعنا صوت "الضبة"وهي تسكن في المشقبية الخشبية، تبادلت مع البربرية نظرة استنكار وقبل أن أقول لها رأيي في أم المحمدي وقلة أدبها قالت هي وكأنها تفتح أمامي طاقة مسكوكة:

ــ وديني لحضرة العمدة يا مدندش، ينصرك على مين يعاديك.

قالتها برجاء وصدق وعشم جعلني أشعر بأنني على استعداد لأن أسلمها روحي إذا طلبت، أنا الغلبان الحاوي فاعل الأفاعيل الذي لم ينتصر على من يعاديه مرة في كل عمره،

أنا القوال الذي يحتال كل يوم لكي تستمر الحياة ولكي أحمي نفسي من اكتمال الهزيمة، بلا سند حقيقي يسندني، لا عزوة ولا أرض ولا دار عليها القيمة، وتأتي تلك الغريبة لتدعو لي بالنصر، كأنها عرفت جرح عمري وحاولت بدعوتها أن تداريه، يعاديني في الكفر فقري وقلة بختي والجهل الحاكم المتحكم في مصائر الواعين، هي القسمة غير العادلة التي ورثناها دون أي اعتبار للقدرة، كنت أفكر وأنا في اتجاه دوار العمدة البعيد، وكانت تحمل الولد راكبا على كتفها وأحمل البنت الأصغر، ومن درب عوف لدرب شلبي يا قلبي لا تحزن، كانت أخبار الخيار قد سبقتني لكل الناحية، وكانوا يشاكسونني على عادتهم لكنني لا أرد، وعندما وصلنا الدوار طلبت مقابلة العمدة، لعله كان قد صحا من تغفيلة القيلولة لحسن الحظ لأنهم سمحوا لنا بالدخول دون انتظار طويل، عرفته على البربرية وقلت له كلاما في صالحها وكأنها من لحمي ودمي لدرجة أدهشت جناب العمدة، لكن المرأة أدهشتني وهي تقول للعمدة بدون مواربة:

ــ عندي كلام ما يتقالش غير لحضرتك، بيني وبينك يعني، ما تزعلش يا مدندش.

وكأن العمدة كان ينتظر منها أن تقول ما قالته، أشار ناحيتي بإصبع يده فخرجت وأنا أسمع صوته الآمر:

ــ استنى في السلاحليك لحد ما أبعث لك يا وله.

وطال انتظاري واحتمالي لسخافات الخفراء يسخرون مني وهم ينظفون السلاح ويشربون الشاي المصبوب قبل دخولي ويتوعدونني بالحبس في السلاحليك شأن اللصوص ومن تجوز عليهم "الجرسة" متناسين أنني من أتباع العمدة نفسه، لكن خفراء كفرنا لهم طبع واحد، يتباهون بالسلاح الميري في الدوار وقد يرتجف الواحد منهم وهو يحمل نفس السلاح في "الدرك" إذا سمع بدخول شقي إلى زمام الكفر أو عبور جماعة من أولاد الليل من سكة الكفر الزراعية، وعندما يحصل الواحد منهم على كوب شاي فإنه لا يتركه إلا خاويا، يلوك رشفاته بتلذذ وكأنه يعاير الدنيا بأسرها لأنه يشرب الشاي، هل أغفيت في جلستي المركونة إلى الجدار أم أنها كانت إغماضة عين صحوت منها على نداء البسطامي يطلبني للدخول إلى مضيفة جناب العمدة، كانت البربرية تجلس على الدكة المفروشة والعيال إلى جانبها، قال العمدة شاخطا:

ــ شوف يا مدندش، ح تأخذ وياك اثنين غفر، البسطامي ومرعي، تدخلوا دار شبل المنسي، وسيان برضاهم أو غصب عنهم ح تسكنوا أم العيال دهه قاعة ستك "عالية"، ومن أي ناحية تدبروا لها فرشة وغطا تكفيها هي والعيال، واللي يعترض جرجروه ع الدوار.

كنا مثل جيش محمد علي الطالع لفتح عكا، البسطامي ومرعي في الأمام وعلى كتفيهما البندقيتان، وأنا والعبدة البربرية حاملة الولد الراكب "حماري" على كتفها الأيمن، وأنا

أحمل البنت الأكبر هذه المرة بينما تحمل البربرية البنت الأصغر على صدرها والناس تطل ولا تفهم، يتبادلون الهمس بعدما نعبر، وعند البوابة وجدنا عشرات الرجال من أولاد عوف يتقدمهم شبل المنسي نفسه الذي اقترب من البربرية واختطف الولد بشوق ولهفة يشبعه تقبيلا وضما ثم يفعل نفس الشيء مع البنتين وكلنا في دهشة، لكنه كان يتباكى ويفسر لمن يطلب التفسير:

ــ ولاد ابن عمي فرج الله، ولاد الغالي اللي راح ولا رجعش، اللي غطس يا ولداه ما قبش وهو ف عز شبابه، ما عتروش على أثره، زمايله قالوا إنه اندفن ف جسم السد العالي نفسه، أهم دول اللي فضلوا لنا من ريحته، بس اللي خلف ما ماتش يا ناس، اللي خلف ما ماتش.

مصمصوا الشفاه ترحما وإشفاقا وتعجبا واندهاشا ومجاملة، وسبقنا شبل المنسي وقد احتفظ بالبنت الأصغر يحملها ويضمها ويقبلها، وكان الباب المسكوك قد انفتح على مصراعيه باختيار سكان الدار الكثار، ربما شعر الباب نفسه بقوتنا فانفتح، وكانت أم المحمدي هي التي استقبلتنا بالترحيب، وفي حضنها أخذت البربرية وعيالها بالتتابع وأشبعتهم تقبيلا حتى شعرنا بالملل، بعدها شالت المساند إلى الحصير ووضعتها مسنودة إلى الحيطان في قاعة الست عالية المكنوسة، كانت تتودد للبربرية وتعتذر عن جهلها والأخرى تسمع ولا تصدق وتبدو لنا من النوع الذي إذا قدر فهو لا يعفي، لكنها سكنت بعيالها في زحمة الدار وخرجنا كل واحد في اتجاه، الخفيران المسلحان لناحية دوار العمدة لتقديم التمام، وأنا في اتجاه داري أفكر إن كان العمدة قد قدم للبربرية خدمة أو أنه عمل فيها فصلا بتسكينها تلك الدار وهو العارف لحالتها وطباع سكانها، وقلت لروحي إنه سوف يكون من الصعب أن تحتمل الدار سكانا أكثر وهي التي تضيق بمن فيها، شبل المنسي وأم المحمدي وأولادهما، ورجب الأعور في المقعد العلوي وسطح الدار، وأم شبل فوق الفرن ووسط الدار تخدم نفسها بنفسها رغم العمى وثقل الحركة، ثم نعمة الله بعيالها الخمسة الصبيان منذ طلقها مصطفى الجزار وأقسم بأنها بهيمة إسكندراني لحمها أبيض بحمرة لكن مخها جملي، يرمي لها وللعيال "سقط" ذبيحة من كل أربع ذبائح يذبحها مدعيا أنه الشرع بحساباته بافتراض أنه زوج لأربع أو من الممكن أن يكون زوجا لأربع، تسكن قاعة الست "زين" وحجرة الواجهة محجوزةومسكوكة على أشياء تخص الأستاذ فهيم كاتب الشهر العقاري في البندر، كبير الدار بكل الحسابات وإن لم يسكنها لربع قرن بعد أن حصل على الابتدائية وعينوه كاتبا يسكن البندر ويطل على الكفر في الأعياد والمناسبات ثم يرحل محاطا بكل سكان الدار حتى يركب بعد أن يدس في كف رجب الأعور ما تجود به نفسه لأقرب الأقربين وهو العارف كما يعرف كل ناس الكفر أن دخل الدار منعدم لا قيراط

ملك ولا قيراط إيجار ولا بهيمة تحلب، ولولا مواسم الحصاد وزكاة المال والأعياد ما دخلت الدار حفنة حب ولا انخبز في فرنها رغيف.

نسافة الكفر: نسافة الناحية:

أول شيء اشترته البربرية من البندر كان مجموعة غرابيل، كل غربال شكل وحجم وعمق، مجموعة غرابيل مختلفة في كل شيء لدرجة تجعل الإنسان يراجع نفسه ويسأل الآخرين الذين لم ينتبهوا مثله إلى وجود كل هذه الأنواع من الغرابيل، وفي كفرنا "النعناعي" تسرح الأسئلة وتبحث عن الجواب الكافي الشافي، سألوني باعتباري مسئولا فسألتها وجاوبتني، أراحتهم وأراحتني:

ــ مش كل حبة ولها كيال؟، طيب، يبقى كل حبة ولها غربال، خبر إيه يا مدندش؟ بقى غربال السمسم ينسف الشعير؟ ولا غربال حبة البركة ينفع مع القمح؟ طيب الذرة كام نوع؟ والرز والحلبة وتقاوي البرسيم و.. يوه.. نسيت أولع ع الشاي.

قالتها وقامت، شطفت أكواب الشاي المشطوفة، وحطت براد الشاي فوق الراكية مصقولا ورائقا يفتح النفس، وكانت أسنانها تلمع فيرفرف القلب مثل يمامة وحيدة ولا أجرؤ على الكلام، أسمعها وأحفظ منها، أكتشف أنه من الممكن أن يكون في هذه الدنيا غرابيل بعدد أنواع الحبوب التي تطرحها الأرض، كل أنواع الأراضي في كل بلاد الدنيا المسكونة، وهي تمد يدها بكوب الشاي رجعت لقاعة الست عالية وسمعت البربرية:

ــ ح اشتغل نسافة يا مدندش، تساعدني؟

ــ تحت أمرك.

وكان علي أن أفي بالوعد، عرفتها بالأجران في كفرنا في كل مواسم الحصاد، ثم ذاعت شهرتها وذاع صيتها فوصل إلى كل بلدان الناحية، يطلبونها بالام "العبدة البربرية أو البربرية النسافة" أو أم الولد الأسمر "والبنتين البيض" واتفق كل الناس أنها أبرع من أمسك بالغربال لينسف الحب وينظفه من كل الشوائب، واختصرنا اسمها وصار الكل يناديها "النسافة" ويتحدثون عنها "النسافة" وكأنها الوحيدة التي تستحق الاسم وكأنه قبل أن تجيء لم تكن هناك نسافات ولا نسف.

قالوا إن العمدة عمل كل الممكن والمستحيل ليحصل لها على معاش باعتبارها أرملة المرحوم فرج الله واعترض البعض لأن فرج الله اختفى ولم تطلع له من الحكومة شهادة وفاة، وأنه لابد قبل الموافقة على صرف أي معاش رسمي من شهادة وفاة رسمية مختومة بالنسر، لكن العمدة تبع الحكومة ولن يغلب في استخراج شهادة وفاة، وقالوا إنه ساعدها في امتلاك الدار من كل الورثة غير المقيمين فيها، أولاد حبيبة وأولاد زاهية وأولاد الست عالية وورثة

الحاج مرسي، والحقيقة التي أعرفها أن المرأة أرادت أن تؤمن وجودها فدارت على بيوت الورثة وهي تسحب عيالها تستدر العطف وتطلب التنازل عن حصص هزيلة من ميراث هزيل في دار هزيلة هي في واقع الأمر أوطى دار في الدرب وكثار كان الورثة وكثيرة كانت مشاويرها لكنها أثمرت على كل حال حق الولد في امتلاك أربعة أخماس الدار، بل إن الأستاذ فهيم كاتب الشهر العقاري أخلى لها حجرة الواجهة التي ظلت طوال السنوات مسكوكة ومسكونة بالفئران وعناكب الجدران.

أية واحدة مكان أم المحمدي كانت تشيط مثلما شاطت وأكثر، ولأن أم المحمدي معروفة في الكفر أكثر، ولأنها تدخل بيوت الخلق أكثر ــ تساعد في خبيز أو عجين أو تطحن حبا أو تبني صومعة للغلال فوق سطح دار أو تساعد في غسيل أو طبيخ أو أي شيء، أي شيء يحتاج لجهد مبذول بمقابل أو بغير مقابل إلا الود والسماح لها بأن تفك نفسها بكلام عن النسافة وأفعال النسافة وكيد النسافة وبحرها الغويط الغويط الذي لا يعرف الناس "قراره"، كانت النسوان في كفرنا تسمع وتهمس في الآذان بما تسمع، حتى تلك الحكايات التي يصعب تصديقها عن عشق رجب الأعور للنسافة ورغبته في الزواج منها وتضحيته بشقاء عمره طوال السنوات لكي يرضيها، وكيف أنها وعدته ولم تصدق أبدا، واربت له باب الرجاء ولم تفتحه أو تقفله فصار خاتما في إصبعها تسيره بحسب ما تشاء وقتما تشاء لكنها في الآخر قالتها له بعد أن فاته كل قطار وما عادت فكرة الزواج منها أو من غيرها تشغله بحق مثلما كان في السابق، قالتها له:

ــ دا حنا أخوات يا رجب، ومن غير جواز أنت سندي وراجلي طول السنين اللي فاتت، يرضيك يا خويا معاش العيال ينقطع؟ ما هي اللي بتتجوز معاشها ومعاش عيالها بينقطع.

ورد عليها بشهامة وهو الأبيض وهي البربرية:

ــ لا.. ما يرضنيش.. بلاش جواز يا أم الولد.

تقول أم المحمدي لنسوان الكفر إن رجب الأعور كان يسرح في الغيطان أو يشتغل في دور الخلق ويرجع للبربرية يفرغ أمامها ما حصل عليه من ثمار، خضراوات أو فاكهة، أو قروش نقصت أو زادت، يرميها على الحصير في متناول يدها ويقول عبارته التي لا تتغير:

ــ رزق العيال.

وأي واحد مكانه كان من الواجب أن يعمل ما عمله رجب الأعور، أولا لأنه ابن عم المرحوم فرج الله، ملزوم بالصرف على الأولاد، وثانيا وهو الأهم أنه لم يجد في الدار أو الدرب صدرا حنونا أو قلبا طيبا يريحه وهو العطلان أكثر منه الباحث سعيا عن رزقه في كل

الحالات يأتيه لباب داره، وفي كفرنا لم يمت واحد بالجوع كما تعرفون، وهو وإن جار الزمان واحد من أولاد عوف، أصل البلد رغم كيد الكيادين.

تزويج البنت الأكبر:

دخلت كفرنا سيارة ملاكي أكبر وأفخم من سيارة المأمور ومن سيارة ابن الباشا الكبير ساكن "سرايته" في وسط البندر، أنا لا أعرف في أنواع السيارات ولا أسعارها لكنني آخذها بالشبه، والسيارة التي دخلت كفرنا في ذلك الصباح الصيفي الرائق كانت أفخم سيارة رأيتها في حياتي، رمحنا نتأكد من دخولها ناحية البوابة فرأيناها، كان السائق البربري يحاول أن ينفذ بها داخلا الدرب ولا يفلح، حتى عندما تدخلت متطوعا لأكون دليله لم ينجح في أن يفلتها ويدخل، ولم يكن ذلك بسبب نقص براعة في القيادة كما قال البعض، كان السبب الحقيقي هو طول السيارة وعرضها وضيق مدخل الدرب وزاوية البوابة، ما غاظني وجعلني أفعل ما فعلت أن الزجاج المسكوك كان معتما لا يكشف من يركب بداخلها، قلت للسائق البربري الذي نزل وجعل ينظر إلى المسافات الخالية من الأركان الأربعة إننا نستطيع لو أراد أن نحملها بعون الله فاستمهلني وفتح الباب الأمامي وتحدث إلى الراكب الوحيد في المقعد الخلفي شارحا له فكرتي، فهز رأسه لا بس العقال موافقا، اغتظت وقلت لروحي إنه لو كان الملك فؤاد أو الوالي محمد علي نفسه نزل كفرنا في الحلم راكبا مثل هذه السيارة لفضل النزول والمشي حتى يصل إلى دار من يقصده، سألت السائق البربري عن قصد الراكب لابس العقال فقال بأدب:

ــ دار الست هانم أم عصام فرج الله.

كدت أضحك من بلاهة البربري لأن الدار كانت على بعد خطوات قليلة ولأنه قال على البربرية النسافة ست هانم، لكنني لم أضحك، قلت أعمل ما يشفيني وناديت على الرجل ثم هتفت:

ــ هيلا هوب، بإيدينا يا رجالة وشباب الزمن الوردي في الكفر الوردي، هيلا هوب ارفع، وانزل بشويش.

كانت السيارة قد أصبحت خلف خلاف، مقدمتها اليسرى مدفوسة في جدار المدخل الأيسر ومؤخرتها اليمنى في تجويف جدار "الملقف"، شيء مسخرة معمول بفعل القوة الغشيمة عندما تطاوع دون أن تفكر في غرض من يقودها ولو انكسر فانوس أو انعوج رفرف مثلما حدث بالفعل وقد انحشرت السيارة "بورب" بحيث أوقفت الحركة من الناحيتين، وفات وقت قصير لكنه كان كافيا لأن تتحول البوابة إلى سامر حقيقي من الناس والدواب تتوسطه السيارة، يطالبونني دون خلق الله بتخليص مدخل البوابة من الخازوق المعدني المحطوط بميل في

مؤخرة البوابة، قلت لهم توسع لبوز السيارة حيزا من زاوية جدار المدخل الأيسر المبني بالطوب الأخضر والطالع من طين أرض كفرنا "الأخضر" فزاموا بين رافض ومؤيد وساخر يرغب في إطالة الزمن الضائع، فبدا لي كفرنا "أخضر بزرقة" تلمه زمارة ولا تفرقه عصا ولا شمروخ ولا سلاح في أغلب الأوقات، قلت لنفسي أتصرف، وبإشارة مني فتح السائق باب السيارة الخلفي لأدخل وأجدني إلى جوار الرجل لابس العقال والجلباب الأبيض وقد احتفظ بربع لحيته مهذبا بإتقان وبراعة، قلت أستعجله:

ــ ح تتفضل تنزل وتمشي خطوتين، العربية مش ح تدخل.

ــ إيش لون؟

كررت كلامي بأكثر من طريقة وبدا لي أن الرجل يفهم ويتظاهر بعدم الفهم، نوع من العناد الحصاوي الذي يركب البني آدم لأسباب لا نعرفها أو بدون أسباب في الزمن "الأخراني"، لكن الرجل كان يبدو كالملسوع وهو يهدر بما لا أفهمه مع أنه عربي، وللحظة انحطت نظرتي على العكازين المعدنيين المركونين في الناحية الأخرى مسنودين على الباب الآخر، لعلني كنت أراهما ولا أعرفهما، لعلني فكرت أنها لا يخصانه هو رغم أنه أشار إليهما عدة مرات، شعرت بالوجع يمسك كل بطني وأحشائي، بل أنني شعرت بالقرف من نفسي، وبعسر أمسكت روحي، ثم ارتميت ناحية الرجل أقبل رأسه وكتفيه والجزء العلوي من صدره ربما كنت أهدر بالبكاء وأنا أعتذر.

ــ سامحني يا خويا.. المسامح كريم.. سامحني ما كنتش أعرف.

والرجل في حيرته يهدئني بعبارته المكررة:

ــ لا تشغل بالك.. لا تشغل بالك.

كان بطني ممسوكا لا يزال وهم يطلون من الأبواب باندهاش وحيرة، يضربون الكفوف ويفسر البعض أمرنا للبعض الآخر على أنه قرابة كبيرة وغياب طال ومفاجأة لقاء غير محسوب:

ــ يمكن واحد من ولاد عمه.. ولا أخوه اللي من أبوه اللي كان بيحكي عنه، كانوا بيقولوا مات تحت قطر، خبر إيه يا مدندش، ما تحمد ربنا اللي لقيته بعد غيبة، وحد الله... والله طلع لك أهل يا مدندش على آخر الزمن.

وكلام كثير سمعته، ولابد أن كثرة الكلام، أعادتني للمأزق الذي صنعته عندما طاوعت شيطاني الذي أغواني وما أعطاني غير وجع البطن، قلت لروحي أتوب وأعمل الطيب وقررت أن أحمل الرجل على كتفي لحد باب الدار، ومن دون كلام شعرت أن الرجل فهم غرضي فسلمني روحه أحمله بالطريقة الأفضل، وكان السائق ينظر ناحيتنا بعينين مطفأتين لا بريق فيهما ولا وهج ولا فهم، نظرة تليق بعبد بربري ينتظر الأمر وينفذه وقد

أمرته بإحضار العكازين المعدنيين وأن يتبعنا فنفذ أمري، والعبد يا سادة نوعان، عبد بربـــري وعبد غير بربري تماما مثل الحر، حر بربري وحر غير بربري، لكنه شاع في بعض مجالس الجهلاء أن العبد لا بد أن يكون بربريا أسود، لكنني عرفت على امتداد العمر الـــذي عشـــته والناس التي عرفتها والبلدان التي زرتها والبيوت التي دخلتها عبيدا ببشرة ناصعة البيـــاض، عبيدا بمعنى كلمة عبيد في مراكز محترمة وجلدهم أبيض، نفوسهم تقبل الضيم وعلى استعداد لتقبيل الأيادي، كل الأيادي، ربما يقبلون يد العبد الأعلى منزلة وهم يعرفون أن نفـــس العبـــد يقبل في الخفاء يد العبد الأعلى أو السيد الأدنى، وسبحانه موزع الأرزاق على عباده والقـــادر وحده على تخليص العبيد من وضاعة أفعالهم وانحطاط نفوسهم، تبارك جل شأنه أعطاني حس الفقراء الذي لا يخيب وزرع في قلبي الجسارة فعرفت أن الدنيا "برطوشـــة" قديمـــة يســـكنها التراب ويغطيها، وأن الأكابر مناظر والسواقي تدورها المواشي وأن الشـــمس رغـــم قوتهـــا وشدتها لا تقتل دود الأرض، وأن العصا السابقة سابقة، ولأن الموت نهاية كـــل حـــي كمـــا تعرفون فأنا أشهدكم على غيظي من هؤلاء العبيد الذي قبلوا أن يعيشوا أعمارهم عبيدا مع أنه في إمكانهم أن يعيشوها أحرارا، حتى لو كانوا أفقر الفقراء أو أعجـــز العجـــزة أو أضـــعف المحكومين فكل ذلك لا يمنعهم من أن يعيشوا أعمارهم أحرارا، على هذا النحو كنت أفكر يـــا سادة وأنا أحمل على ظهري الرجل الخفيف الخفيف مثل "شمال" برسيم محشوش سرقة مـــن غيط عدو.

كانت "بحراية" الدار غويطة لكن واحدة من البنتين كانت تضع كرسي حمـــام يســـاعد على النزول وكأنها كانت تعرف غرضي قبل أن أصل، وبسلامة الله نزلـــت وقـــادتني نفـــس البنت في اتجاه حجرة المدخل المحطوط تحت شباكها كنبة وتحت الكنبة حصـــير مفـــروش، أنزلت الرجل بحرص وأجلسته على الكنبة ثم جاورته، وكانت البنت ما زالت تنظـــر ناحيـــة الرجل وتنتظر، كأنها حسبته لعبة من ألعابي أحركها بمفاتيح مثل "الشيكو بيكـــو" فـــي مولـــد البدوي، لكن الرجل نطق وهو ينهج من التعب:

ــ يعطيك العافية.. ويعطيها.

قال الكلمة الأخيرة وهو ينظر ناحية البنت التي اكتشفت فجأة خطأ وجودها في المكان فغطست في بطن الدار التي بدت لي على غير العادة ساكتة "هس"، ومرة أخرى سمعته يقول لي وهو يبتسم فتظهر أسنانه المنتظمة المشرقة وراء ابتسامته الودودة وهو يمد يـــده نـــاحيتي بالورقة الخضراء:

ــ يعطيك العافية.

ترددت فدسها في كفي مطوية وكأنه يتعجلني قبل أن يرانا أحد، أخذتها ودسستها فـــي جيبي فبانت على تقاطيعه المتسامحة علامات انشراح، وعندما دخلت النسافة أم الولد والبنتين

تبتسم وترحب بالحاج زايد الذي نور المكان والبلد وكل الناحية تأكد لي أنها تعرفه منذ زمن طويل، كانت ترطن معه بنفس اللهجة، تفهم عنه ويفهم عنها، وكنت أنا مثل الأطرش في الزفة لا أفهم، لكنها اكتشفت وجودي فجأة وتذكرت فجأة أو تظاهرت بأنها تذكرت.

ــ يقطعني، مش عارفة مين اللي كان عيزك على البوابة يا مدندش.

قلت أسلم وأقوم، فكرت وأنا أتلكأ على البوابة وقد خلت من السيارة التي تركتها محشورة في مدخلها خلف خلاف ولا أدري كيف ولا متى أبعدوها، وقلت لنفسي وأنا سرحان في اتجاه السكة الزراعية أن البربرية طردتني من دارها بلطف وأدب بعد أن أديت دوري وأخذت الثمن، تذكرت الورقة فأخرجتها، وتأملتها، كنت قد سمعت عنها ورأيتها من بعيد، لكنني لم أمتلكها أو أحلم بامتلاكها، من غيرها يمكن أن يعيش أمثالي، ومن أجلها خرج شباب الكفر ورجاله، ساحوا في أركان الدنيا، يسافرون، ويرجعون ويتحدثون عن الورق الأخضر وأسعاره بدلا من سعيهم السابق من أجل تغطية أرض الكفر بالنبت الأخضر، عادوا ولونوا الكفر باللون الأحمر، بالطوب الأحمر، بنوا الدور الجديدة على جانبي السكة الزراعية وعلى امتداد البصر ثم دخلوا وهدموا الدور القديمة المبنية بالطوب الأخضر وأقاموا مكانها دورا جديدة بالطوب الأحمر، صار كفرنا الأخضر كفرا أحمر بفضل الورق الأخضر، يتباهون علينا بالقرش البراني ويؤكدون أنه قادر على تبديل الناس وأسعار الناس، زمن براني فتح السادات للخلق بابه فتبدلوا ورطنوا بلهجات غريبة، وفي الزمن الفائت كنا نقول عن القرش المغشوش والشلن المغشوش ونصف الريال المغشوش والريا المغشوش "براني"، كان أصحاب الدكاكين يدقونه بمسمار على باب الدكان أو جداره أو حتى الفاصل الخشبي الذي يفصل التاجر عن زبائنه.

كنت في الخلاء أدعو الله بصوت ويسمعني:

ــ "يارب الأقوياء امنحنا القوة حتى لا نضعف مثلما ضعف كل شيء من حولنا، الزرع والضرع وفحولة الثيران والتيوس والكباش، خلصنا من الوهن الذي طال مجرى الرياح الذي هو تفريعة من نهر نيلك، ساعدنا على الصد والرد ومقاومة الزمن البراني والقرش البراني، أجرنا لأننا قبلهم عرفناك وقبلهم عبدناك ولا مجير سواك".

تحت شجرة السنط شحيحة الظلال قعدت، لا تراجعت ولا استخسرت، كانت الورقة الخضراء مفرودة في يدي وكان عود الثقاب الذي أشعلته يقترب من طرفها باللهب، يشعلها وتسرح فيها النار حتى تحولها إلى رماد يميل إلى السواد عدا تلك المساحة التي كانت ممسوكة بالإصبعين الملسوعين يتخلصان منها بالرمي في الوقت المناسب فتظل النار حتى تحول الجزء إلى نفس الرماد الأسود المتماسك في البداية لكنه الهش القابل للتفتت عند أقل ضغط.

جهلي في الكفر أكرم لي من معرفتي، جهلي أو ما يبدو لهم أنه جهلي يعيشني بينهم، وإذا أظهرت لهم معرفتي بالأشياء جرجروني إلى سكة المشاكل وعاصوني بالهباب، جربت نفسي عشرات المرات وما اتعظت، ظللت على حالي مفلوت اللسان إذا لزم الأمر وزادت عن حدها المساخر، مكتوما وساكتا إذا هانت ولانت وفاتت على خير، لكن يا سادة هل كان يجوز لرجل مثلي ضرب الدنيا برطوشة أن يسكت وقد شاع في الكفر أن الرجل الخفيف مثل "شمال" برسيم محشوش من غيط عدو قد عقد قرانه بالفعل على البنت الأكبر من عيال النسافة في نفس عصر هذا اليوم بينما كنت أدعو الله في الخلاء أو بعدها بقليل، هل كنت أسكت؟

قلت ما قلت وردحت ما طاب لي الردح للنسافة والمأذون وشاهدي عقد الزواج، قلت أنها باعتها وأخذت الثمن ورقا أخضر، لكن كلامي ذاب في زحمة الأصوات التي تسكتني وتلك التي تلعنني والأخرى التي تحذرني لكنني لم أتوقف حتى حملوني حملا ووضعوني في حجرة "السلاحليك" ربطوني بالحبل وضربوني بالشوم فانهدت قوتي وانشرخ حلقي من كثرة الصراخ، فتشوني وسألوني عن الورقة فما صدقوني بأنني حرقتها، لكن العمدة صدقني وأمرهم بحل الحبل، أخجلني يا سادة لأنني كنت قد عرفت أنه أول الشاهدين على عقد القران، شهد العمدة لصالحي يا سادة:

ــ المدندش ده بركة ما حدش ياخد على كلامه، دا درويش وزاهد ف الدنيا ولا حدش عارف قيمته، علي النعمة نهار ما يموت لأبني له مقام على حسابي.

قلت لنفسي أسايره، أبين له ولهم علامات جهلي وقلة معرفتي، جهلي يعيشني ومعرفتي تهينني وتقلل من قيمتي، تعوصني بالهباب وسخام النيلة، هل كنت بارعا وأنا أحول أكابر الكفر إلى سامر يتفرج على ملاعيبي ويضحك، أو أنهم هم الذين كانوا يرغبون مثل العمدة أن أكتفي بدور الطبال الزمار النداب الحاوي، أفرجهم على أرواحهم ولا أتجاوز حدودي؟ وهل عقدنا في تلك الليلة صلحا مثل صلح الذئب على الغنم؟ ربما نكون قد اتفقنا والصلح خير كما تقولون ونادرا ما تصدقون.

تزويج البنت الثانية:

إذا كان العجوز العاجز ساكن البلاد البعيدة قد استطاع خلال ساعات أن يأخذ بنت النسافة الأكبر ويسافر بها ويتسبب في كسر واحدة من أسناني بسبب قلة عقلي وانفلات لساني، فهل كان من الحكمة أن أفتح حنكي بكلمة مع أو ضد حضرة الصول عسران ابن الأصول ساكن الدرب المؤمن الذي لا يتخلف عن صلاة في موعدها؟ لا يحب الكيد ولا النميمة وله من الحاجة أمينة بنت عمه خمس بنات، زواج مرتاح، له أرضه وماله ولها أرضها ومالها، عاقلة وراضية بنصيبها لكنها تشاركه القلق وحلمه في أن يخلف ولدا ليرثه ويحجب مطامع أولاد

العم والأخوة وأولادهم، ولأنه رجل تقي وعاقل فقد فوض الحاجة أمينة ذاتها لكي تحل المشكلة بما هو لائق.

قال الناس للناس أن الصول عسران رجل أصيل، صبر وطال صبره ولم يطلب من الحاجة أمينة إلا بعد أن انقطع عنها الدم وصارت مثل البئر القديمة لا تعطي أو حتى تعد بقطرة ماء، وقالوا إنها فكرت واهتدت إلى أنسب الحلول، بنت النسافة، صبية حلوة تغوي العابد وهي من نفس العائلة مهما قيل إنها من الفرع المائل، مقدور عليها ومقدور على أمها النسافة وعلى الولد ابنها وأقل شيء يرضيهم، هكذا قال الناس للناس قبل زواج الصول عسران من البنت بأيام، وقبل أن تذهب الحاجة أمينة بنفسها إلى دار النسافة وهي التي لم تخرج من دارها أبدا أبدا لتدخل أية دار في الكفر، كانت تخرج طبعا في المناسبات الضرورية، زيارة المأمور في البندر أو الذهاب إلى الطبيب لعمل فحوص يصعب أن تتم في الدار، زيارة الحسين أو السيد البدوي أو السفر لابن عم الصول عسران ساكن القاهرة قبل موعد الطائرة الذاهبة إلى بلاد الحجاز أيام الحج، وفي كل الحالات كانت السيارة المخصوص تقف أمام الباب في انتظارها وهي تخطو من باب الدار إلى باب السيارة وقد غطاها الملس وغطى وجهها طرف الطرحة "الشيفون" السمراء بحيث يحق لكل ناس الكفر أن يقولوا إن أحدا لم ير ذيل جلبابها أو كعب قدمها أو كفها على امتداد السنوات التي عاشتها في دار الصول عسران قبل أن يصل إلى رتبة الصول، قالوا إن النسافة لم تعترض على شيء ولم تطلب أي شيء أكثر من مجيء الحاجة أمينة بنفسها إلى دارها تشرفها وتطلب بلسانها البنت لحضرة الصول عالي المقام ابن الأصول الطيب، مالنا إذا كانت الحاجة أمينة قد اعترضت على الزيارة أو لم تعترض؟ مالنا إذا كانت النسافة تقصد أو لا تقصد أن تقول لأهالي الكفر إن رأسها برأس الحاجة أمينة سواء بسواء، مالنا نحن لكي نفتي بما لا نعرف؟ الذي حدث هو أن الحاجة أمينة راحت بنفسها لدار النسافة وأن حضرة جناب العمدة حضر الاتفاق، وأن البنت راحت بزفة إلى دار الصول عسران، لكن ناس الكفر قالت لناس الكفر بعد مرور الأيام والشهور والأيام والشهور أو بعض السنوات أن الصول عسران راحت أيامه، وأنه لم يعد بقادر على سقاية الأرض العفية العطشانة، وكلام يولده الغل والشماتة في الرجل الطيب، يقابله كلام ناس آخرين للناس بأن البنت رغم الصبا والجمال كانت أرضا بورا وعاجزة عن رعاية البذرة الصالحة أو إخراج النبت المأمول.

وقال ناس الكفر إن الحاجة أمينة عملت بأصلها، غصبت على روحها وراحت لدار النسافة ماشية وطلبت بلسانها أن تأخذ بنت النسافة الأصغر ضرة لها، وتعهدت بأن تحميها وترعاها كواحدة من بناتها، وأن الصول عسران لم يستطع أن يداري عشقه للبنت الصبية الحلوة الكيادة التي ظلت تعده بالولد، وكم من أمسيات احترق فيها قلب الحاجة أمينة بنار

الغيرة والبنت الصبية الحلوة تزداد حلاوة وتحمل بدل الجنين لحما طريا يرتج إذا قامت أو قعدت أو سارت أو نامت، حتى ادعاءات الحمل والتظاهر بالوحم وتأكيدات كل الحكماء الذين زاروها في الدار بأنها أرض مالحة وعاجزة عن رعاية الثمرة لم يمنعها أو يمنع النسافة من إشاعة أخبار الحمل الكاذب المتكرر ومؤامرات الضرة العاقر أم البنات الأكبر منها التي تسحر وتكتب وتكيد لها حتى لا يكبر الجنين، الغريب أن الصول عسران صدق وعاش على الوهم في صف النسافة وبنتها، وقال الناس إن موت الحاجة أمينة المفاجئ كانت وراءه حكاية كبيرة شاركت فيها النسافة وبنتها والصول عسران للخلاص منها بالسم بدلا من الانتظار والاحتمال حتى يجيء أجلها المحتوم، وقالوا إن خلو الدار لبنت النسافة سيدها وزود دلالها على الصول عسران، تطلب فيلبي وتشير فيطاوع، نسى خلفة الولد وانشغل بالبنت، وقالوا إن البنت كانت وراء ما بدا للناس من حماية الصول لابن النسافة، تلك الحماية التي جعلته يتاجر في الورق الأخضر الذي كان يأتيه بشيكات أو تحويلات أو عملة منقولة من البلد البعيد بعلم الغريب العاجز أو بغير علمه، لكن الولد كان يتاجر في الورق الأخضر مثلما كان يتاجر في حديد التسليح والطوب الأحمر والأسمنت وزيت التموين وعلف المواشي والسماد، الممنوع قبل المسموح والكل يفوت له إكراما لحضرة الصول من أول المأمور حتى عمدة الكفر مرورا بمفتشي التموين والزراعة والصحة والضرائب وكل مصالح الحكومة حتى امتلك وزود حيز امتلاكه ثم امتلك وزود حيز امتلاكه وهو الجاهل الذي لا يفك الخط لأنه ببساطة لم يدخل مدارس مثل البنتين، ذلك أن أمهم النسافة قالت بعد وصولها زمام الكفر بأيام إنها فقدت شهادات ميلاد العيال في مشوارها الطويل الذي قطعته كما كانت تدعي مشيا على الأقدام من جنوب أسوان وحتى دروب كفرنا المنقوشة كفوفه بالحنة الحجازي تماما مثل كفي النسافة وقدميها، وفي كفرنا المنقوش بألف لون لا يسأل الناس عن علو نجم النفر أو دخوله في برج سعده ما دام مسنودا ومحميا بالحق أو بالباطل.

كبار صغار: صغار كبار:

يوزن النفر في كفرنا بما يملك، المسألة بسيطة ولا تحتاج إلى دليل، يكبر الصغار في غفلة منا ونراهم وقد زاد طولهم وكبروا ولا يحق لنا أن نعترض على ولد زاد طوله أو عرضه مثلما قال الصول عسران للولد عصام في محاولة خفية لكي يذكره بحاله قبل أن تبدله الأيام بمساعدة الصول نفسه، ربما كان يحلم بشيء من العدل المفقود في عقد البيع الأخير، وإذا كان للبيع والشراء أصول في رأي البعض فهو في رأي البعض الآخر صيد في الماء العكر، البيع والشراء شطارة كما قال الولد عصام وهو ينظر ناحية أمه النسافة وأخته السمينة التي سحرت الصول ولعبت بعقله حتى فرط في كل ما كانت تملكه يداه وما ورثه عن

المرحومة أم البنات بأبخس الأثمان ولنفس الولد عصام ابن النسافة، ربما كان اعتراضه الأخير على هيئة الولد البخيل النحيل ــ الذي وضع على كتفيه عباءة عربية مشغولة بخيوط الذهب ــ مجرد رفرفة ذبيحة فات على عنقها نصل السكين الحامي بأسرع مما كانت تتوقع، كان الرجل كما قال لي بعدها يا ناس يراجع سنوات عمره ويشعر بغربة عن روحه والناس الملمومين في قاعة داره الجوانية ليشهدوا على عقد البيع وكلهم مسدودة أفواهم ببقايا العشاء الدسم الذي أعدته البنت بمساعدة أمها النسافة، لكن شيخ البلد قالها ضحك في جد:

ــ مالكم مستعجلين ع الراجل كدة ليه، براحته، ما هي بيعه تهريبه؟ وما هو موافق ع السعر، وقدروا أنه رخيص، يعني هو ح يروح فين؟ مش أخو مراته اللي باسطاه ومريحاه، أهو أولى من أخواته وعيال أخواته اللي عايزين يورثوه ع الحيا.. ولا إيه يا عمدة؟

ــ مظبوط يا شيخ البلد.

قالها وداري ضحكته فدارى كل واحد في المجلس ضحكته حتى وقع الصول على عقد البيع، نزل مقامه بمساحة الأرض التي باعها، لكن هل كبر مقام الولد بمساحة الأرض التي امتلكها؟ انطفأ سراج وكان من الواجب أن ينور في القاعة سراج، فهل نور ابن النسافة مكانه وملاه؟

كنا قد اتفقنا على أن يوزن النفر في كفرنا بما يملك فهل لعبت بعقلي عقول الناس؟ نفس الناس من أهل الولد هم الذي أنكروه وتندروا عليه، قالوا أنه لو ملك البسيطة فسوف يباركون له، إنما هل تدخل في دماغ أحد مثلا أن يتصدرهم في المآتم والأفراح أو أن يرجعوا إليه في أمور زواجهم وطلاقهم وبيع دورهم وغيطانهم ومواشيهم مثلما كانوا وما زالوا يفعلون مع كبراء الدرب؟ ربما تكون المسافة قد تعجلت وبعدت الولد في المناسبات التي تصادف أن مرت على كفرنا "الملاوع"، موت بنت خال الصول وظهور ابن مهران المنسي عوف ثم سفر عدنان المنسي ابن عم فرج الله نفسه، وفي كل هذه المناسبات وقف الرجال الكبار للولد بغير ود، يزيحونه إلى الخلف ويتقدمونه وقد يمتنعون عن مصافحته أمام الناس وهو من لحمهم ودمهم، ولا بد أن يكون الولد قد شكا لأمه من أفعالهم، وربما يكون قد بكى من قلة حيلته وعجزه عن حماية روحه من غمزاتهم وهمساتهم، ذلك أن النسافة لبست جلبابها الأسمر وراحت بنفسها على دار عدنان المنسي، وجهت كلامها للصول عسران وهو يتوسط الأكابر أولاد عمه، تقصدهم وترمي كلامها عليهم وإن اتخذت من الصول عسران سلما تستند عليه:

ــ هو الصغير بيفضل صغير يا جوز بنتي؟ دي الدنيا دواره، شايلين عصام ابن المرحوم فرج الله وزاعقين له يا كبار؟ دا ما يجيش قد عيل من عيالكم، خذوه في وسطكم وكبروه.

وإذا كانت حيطان المندرة اهتزت أو نطقت يكون الكبار اهتزوا أو نطقوا، استكبروا أن يرودا على حرمة بربرية أم ولد باهت لا لون ولا طعم شاعت أن تحشره حشرا في وسط الكبراء شفاها الله ونولها مرادها في زمن غير زماننا ووسط ناس غيرنا، وشفانا وشفاكم من سكوتنا الطويل عن الحق لمصلحة الباطل.

أصل النسافة:

ــ حسنين صار حرامي، أسرق فلوس أنا يسامح، أسرق هدوم أنا يسامح، أسرق أكل شرب أنا مش يزعل أو يتكلم، لكن أسرق أموات بلد عشان دهب أنا موش يسامح، بيع جدود أموات عشان فلوس أنا أسلم بوليس، أنت روح سجن.

كنت مجرد صبي سفرجي، وكان السفرجي نوبي في خدمة "الخواجة" من سنوات، شغلوني قبل السفر بأيام، وركبت "الذهبية" من ساحل روض الفرج ونزلنا بحر النيل، كانت أول مرة وآخر مرة أركب فيها بحر النيل، نزلنا شطوط وشفنا بلاد وكلمنا ناس لا كنت أعرفهم ولا حلمت بأن أراهم، وعرفت من عم دهبين هدف مشوارنا وشاركته الفرحة لأنه راجع لبلده وناسه في بلد اسمها "أبريم" بين الشلال الأول والثاني، كان الخواجة إنجليزي دفعت له الحكومة آلاف الجنيهات ليكشف بلاد النوبة من أول شلال لحد الشلال الرابع، وعرفت بلاد النوبة وناسها سمر الوجوه ذوي القلوب الطيبة، ظللت في خدمة "الخواجة" أساعد عم دهبين ثلاث سنوات، أراهم يحفرون مدافن الملوك ويأخذون الكنوز، ذهب وجواهر وأشياء لم أر مثلها أبدا، ويقولون إن تعلية خزان أسوان سوف تغرق كل هذه الأماكن بالمياه، وعرفت من عم دهبين وغيره أسرار المدافن، مدافن فيها ذهب وكنوز ومدافن نهبها ناس من أهل البلاد أو من الغرباء، مدافن لا لها عد ولا حصر وكلها مبني بالطوب الأخضر، ووسوس لي شيطاني فأغراني، قلت أعمل للزمن الآتي حسابا، ووسوست أنا في أذن ولد من سكان البلد عارف مداخل مدافن، كان يعرف ويداري، يتفرج عليهم وهم يحفرون في عكس المداخل ولا يدلهم على الحقيقة، ومرة سمعته يتحدث إلى عم دهبين بسخط وغيظ من "الخواجة" سارق الكنوز بموافقة الحكومة وفلوس الحكومة أيضا، حاول عم دهبين أن يغير فكرته لكن الولد كان يظن أن كنوز المدافن هي ملك لأهل البلد التي سوف تغرق بعد تعلية الخزان، كان البلد اسمه "بلانه" وكان الولد اسمه ونيس، قلت له يا ونيس لا تعتمد على عم دهبين، دهبين شغال مع الخواجة من سنين، وقلت له شاركني وأنا أفيدك، أنا غريب عن بلادكم فساعدني وساعد روحك، واتفقنا ونزلنا بليل، وحفرنا أنا وونيس وسط السكون وضوء القمر يرشدنا حتى طلع الفجر وبانت لنا بوابة المدفن، جمعنا من فوق عظام الموتى خلاخيل وعقود وأساور وحلقان ومكاحل وأشياء أخرى لم أر مثلها أو أعرف لها اسما لكنها كانت من الذهب الخالص أو

الفضة، وأخذنا كنزنا وأخفيناه في حفرة، ثم نقلناه في اليوم التالي في حفرة أكبر، وبعد أيام اقتسمناه وأخذت نصيبي وأخذ الولد نصيبه وما عدت أراه، ولا أعرف من رآني وعرف سري وباح به للخواجة الإنجليزي، ورأيتهم يرمحون في كل اتجاه، يطلبني عم دهبين ويسألني عن الكنز المخبوء فلا أبوح، يأخذني إلى الإنجليزي فيسألني ولا أبوح، يأتي ضابط وأفندي ناعم البشرة هادئ الملامح يسألني ويعدني بالسماح فلا أبوح، يحبسونني في قاع الذهبية أياما لا أبوح فيها بشيء، ثم أفاجأ بالولد ونيس وقد جاءوا به لا أدري من أين، ينكشف كل شيء وتظهر الأشياء المدفونة في حرتين، صار ما كنا نحسبه ملكا خالصا لنا في حوزتهم، غضب الخواجة مني أكثر من غضبه من الولد ونيس، وحبسوني فترة ثم رحلوني إلى مركز كفرنا وأمروني بألا أفارقه إلا بإذن مكتوب ومختوم من مأمور المركز نفسه، كنت أشعر أيامها بالغضب والسخط، لكنني اكتشفت بمرور الأيام أنني كنت أعمى القلب لأنني وأنا واحد من أولاد البلد المسلوب كنت أسلبها وأحسبني من الشطار، لم أكتشف إلا بعد أن قرأت وقرأت ولم أبح بما فعلته لأي إنسان على وجه الأرض، دفنت كل شيء في مقبرة من صنعي ونسيت كل شيء، ربما من بعدها هان عندي أي شيء، وعشت على هواي إن كان لي هوى، محبوسا باختياري في حدود الكفر بعد أن انتهت سنوات الإقامة الجبرية في حدود الكفر والمركز، أعيش بجرأة من يملك أي شيء مطلوب يملأ خواء البطن، كل شيء يسد الجوع مسموح لأمثالي أخذه، وكلام الخواجة الإنجليزي في ذاكرتي محفوظ، أتذكره وأعيده لنفسي بنفسي وبصوت كأنني عيل في كتاب فرحان لأنه حفظ الواجب واطمأن على قدرته على تسميعه في أي وقت، لكنني كنت الولد والفقي في نفس الوقت، أنا حسنين المدندش الذي صدق الغريب ذا الوجه الأحمر عارف حرمة الأموات والغاضب من أجل آثارهم أصدق غضب، عالم وأنا جاهل بأغراض الغرباء.

ذات مساء وأنا عند النسافة قالت لأم المحمدي تسكتها:

ــ وأنت تسأليني ليه عن أصلي وفصلي، أنا من بلاد النوبة أحسن وأشرف ناس في البر كله.

ــ نوبة إيه، قال نوبة قال.. بلدك إيه وأهلك فين؟

ــ مش ح أرد عليك..

لكنها ردت على سؤالي عندما سألتها لأي البلاد في النوبة يرجع أصلها، ذكرت اسم بلد الولد ونيس عارف مدافن "بلانه"، تذكرته ساعتها وحدثتها عن سفرجي اسمه عم دهبين من بلد اسمها أبريم فقالت بلهفة:

ــ خالي دهبين الله يرحمه، أنت شفته فين؟

ولم أرد، خفت أن أحكي أي شيء مما جرى لي أيام السفر في الذهبية، لكنها كانت تسألني على فترات متباعدة إن كنت قد ذهبت إلى بلاد النوبة أو صاحبت واحدا من أهلها فأنفي ذلك وأسألها بدوري عن بلدها فتذكر في كل مرة اسما آخر وبلدا آخر حتى بدا لي أنها ذكرت أسماء كل البلدان بين الشلال الأول والشلال الرابع، وبيني وبينكم لا يكفي أن يعرف الواحد منا أسماء البلدان ليكون من أهلها، ومهما قالت هي أو قلتم فأنا لا أصدق كل رواياتها عن طفولتها وصباها أو كيف عرفها فرج الله وأعطاها اسمه ونسله واسم الكفر الذي تلجأ إلى دروبه إذا غاب عنها أو أصابه ضرر، ويزيد شكي في النسافة التي لا شفنا معها عقد زواج ولا شهادات ميلاد للعيال ولا صورة تجمعها مع فرج الله فأقول لنفسي لا هي أم العيال ولا تزوجها فرج الله ولا هي من بلاد النوبة ولا من شمال أسوان، أقول إنها مجرد عبدة بربرية من حدودنا مع السودان عثرت على العيال وعرفت أصلهم وفصلهم وكفرهم فجاءت لتداري نفسها بيننا ربما هربا من عملة عملتها أو حكم صادر ضدها، لكنني أراجع نفسي وأسأل عن الكيفية التي حصل بها العمد للنسافة على معاش وهو المعروف بعدائه لأولاد عوف، وهل أكذب نفسي وأصدق أنه عملها خدمة لله بدون غرض غير خدمة امرأة غريبة أم أيتام غاب رجلها وما عاد، كنت أبحث عن سر اهتمامه بالنسافة وعيال النسافة ومعاش النسافة حتى سمعت الست فطوم تقول في قعدة نسوان:

ـــ ما هي من لحمنا ودمنا، أمها بربرية سودانية وأبوها شلبي، ساعدناها وكبرنا لها عيالها ولسة كمان ح نكبرهم.

كانت تنظر ناحيتي وكأنها اكتشفت وجودي فجأة فسألتني:

ـــ مدندش، إحنا بنتكلم على مين؟

ـــ لا بسمع يا ست ولا بشوف ولا بأنطق.

ـــ عفارم عليك.

لكن قرب الأجل غيرني، خلق في عقلي دبورا زنانا، يلسعني ويجبرني على البوح بما كان، هو نفس الدبور الزنان الذي جعلني أضحك على جثة رجب الأعور الملفوف في الكفن الحرير الياباني سبع طاقات، تذكرت يومها مدافن الملوك والملكات المنهوبة وقلت إن الولد ابن بحر لن يرقد أو يهنأ باله إلا بعد أن يسلت الكفن من فوق جثة رجب الأعور ليقابل رب كريم عريانا كما عاش بيننا.

بنت نفيسة:

طول بعرض وصحة وبنت خال العمدة من بعيد، أنتم تعرفون أن ابن عم الأم في كفرنا هو أيضا خال ولكن من بعيد، طلبها الصول عسران لابن النسافة قبل مرضه الأخير

بأيام، ولابد أن النسافة ضغطت على الصول عسران عن طريق البنت ليذهب ويطلب البنت للولد رغم علمها بعدم حب العمدة للرجل، لكنه راح ووافق العمدة على تزويج بنت نفيسة لابن النسافة بشروط أملاها وكتبها الصول عسران على مضض تنفيذا لرغبة العمدة، وعندما نقل الشروط للنسافة وافقت، وافقت أن تجهزها بجهاز جديد وأن تكتب لها باسمها أرضا كانت قد اشترتها من عم البنت بياع الأرض عرفان، وأن يكتب لها مؤخر صداق كبير، وأن تعمل لها فرحا كبيرا يدعى له الأكابر وتذبح ذبائح حددها تكفي لتغذية كفرنا "الهفتان" يومين أو ثلاثة، وأشياء أخرى مثل الذهب والنحاس والصيني، طلبات لتعجيز النسافة وابنها، هي في حقيقتها رفض بأدب وإهانة في نفس الوقت، نوع من التحدي أو التحكم في الولد، لكن النسافة قبلت كل شيء وفي بالها أنها تخطو آخر خطوة في سكة الطلوع لأعلى مكان في الكفر، وكأنه كان هناك شرط سري عرفناه يوم دخول الولد على البنت، ذلك أنه توافق وأن كان هو نفسه عصر يوم خروج الصول عسران من دنيانا ودفنه في مشهد رج الكفر وكل الناحية في الظهيرة الحامية الملتهبة في الخامس من بئونة الحجر، سمعناهم يقولون إن النسافة نصبت الفرح وأن العمدة راح بنفسه عصرا فكان من الواجب علينا أن نشارك رغم التعب والصهد والغم والسؤال الخبيث الذي يتردد على الألسنة وكلنا نعرف أن كل شيء كان جاهزا ومركونا بلا تحديد ثم جاء الأجل فاختطف الصول عسران ونقلوا البنت للولد، هي "دقة نقص" على كل حال شارك فيها كل من حضر الفرح وكنا كثارا، نسينا الموت وتفرجنا على الغوازي وأكلنا اللحم قرب منتصف الليل مشويا ومقليا ومعمولا على هيئة شرائح ومستطيلات ومربعات غطسانة في أطباق الأدام و "الدمعة"، وكل أولاد عوف أهل الصول عسران حزانى على الميت وعلى الأصول التي ما عاد يصونها أحد، قاطعوا الفرح، حتى أطفالهم الصغار قاطعوه، وانشرخ كفرنا فوق شروخه القديمة شرخا جديدا، هو شرخ نافذ في القلوب يصعب أن يداويه طب أو دواء، لكن ربك سلط أبدانا على أبدان، سلط بنت نفيسة على النسافة أو سلط النسافة على بنت نفيسة فطارت في الدار نار ولم تنطفئ أبدا، كل يومين عراك وردح وقلة قيمة، غضب وصلح ومجالس يحضرها العمدة أو مشايخ البلد، ثم عراك جديد وردح وغضب ومجالس لا يحضرها العمدة، يحضرها واحد من مشايخ البلد، ثم حمل وعراك جديد وولادة وعراك جديد وغضب ومجلس بلا عمدة ولا شيخ بلد ولا حتى خفير، وتطول ألسنة النسوان فتخوض في السيرة مرة لصالح بنت نفيسة ومرات لصالح النسافة، تلك التي احتملت واحتملت على عكس ما كان يظن كل الناس، وفسر الناس للناس حكاية احتمال السباب من زوجة الابن للحماة على أنه خوف من فقدان الأرض المكتوبة باسم البنت أو دفع مؤخر الصداق أو خراب الدار عندما تأخذ جهازها المكتوب في القائمة الشاهد عليها العمدة ومشايخ البلد، وقالوا إن النسافة جرؤت في لحظة غضب أن تلعن العمدة الذي تحول إلى لبانة على لسان البنت تهددهم

به وتخوفهم وتتحداهم لأنه خالها ويخاف على مستقبها، جرؤت النسافة ولعنت العمدة في القاعة الجوانية التي ورثوها من الصول عسران، لكن حيطان القاعات رغم قدمها لها آذان تسمع وتسجل وتوصل في الوقت المناسب، وعندما عرف العمدة بما جرى أقسم يمينا بالطلاق من زوجاته الثلاث ألا يتدخل أو يسمح لواحد من أعوانه أو أصحابه بأن يتدخل في النزاع بين البنت التي هي قريبته من بعيد والنسافة التي كان يحسبها مؤدبة وتحفظ الجميل لمن ساعدها بشهادة كل ناس الكفر أيام كانت حافية القدمين تكمل عشاءها والعيال نوما، فلولاه ما حصلت على معاش الفقيد المفقود الجثة، ولولاه ما تزوجت البنت الأولى من الغريب الذي فتح لهم باب الرزق بلا حساب، ولولاه ما اشترى الولد في زمام الكفر قيراطا أو تاجر في أي شيء، ولولاه أيضا ما تزوجت البنت الثانية أو انتقلت أملاك الصول عسران وأملاك الحاجة أمينة إلى الولد الذي لا يساوي في نظر حضرة العمدة شعرة في ذيل كلب، ولولاه ولولاه ولولاه، كلام كثير قاله حضرة العمدة لرجاله وأنا بينهم، تغيرت نفوسنا من ناحية النسافة وفكرنا في عمل كل شيء يطلبه العمدة لكن الرجل لم يطلب، ترك لنا مسئولية رد شرفه وشرف بنت بنت خاله، وبين يوم وليلة كره أكابر الكفر من الناحيتين نسافة الكفر، ونادرا ما يكره أكابر كفرنا المقسوم نصفين نفس النفر، ولا أحد يدري إن كان الكبار قد أثروا في الصغار أو بعضهم على الأقل أو أن الصغار كرهوها لأسباب أخرى غير تلك التي تخص الكبار، لكن كفرنا المقسوم نصفين عاد وانقسم على روحه عدة أقسام أكثرها لا يحب النسافة ولا ابنها المتهم بعدة تهم جديدة غير الشح وكونه مثل خيال المآتة لا يهش ولا ينش، قالوا إن الصول مات مسموما بيد الولد أو لحسابه، وقالوا مات مغموما من طول لسان الولد الذي كان ينطح بالكلام مثل كبش مخصي أو تيس مطلوق وسط ثيران، وقلنا إن الحكاية من أساسها مشكوك فيها وتحتاج إلى أكثر من إثبات، إذ كيف تفد على الكفر امرأة غريبة ومعها ثلاثة عيال فتعيش في ظل الأكابر والعمدة لسنوات ثم تطلع على السطح العالي وتجرؤ فتخاصم الكبار من الناحيتين بالفعل أو بالقول؟ ولو كان لها أهل في الأماكن التي ذكرتها للناس فهل كانوا يتركونها هكذا تحارب وحدها وتعيش وحدها وتتصرف في كل شيء من دماغها وهم أكثر الناس حرصا على صلة الرحم والدم، لا يفرطون في أي إنسان عاش بينهم وشرب ماءهم أو أكل خبزهم مهما طال السفر أو الابتعاد.

ولدت بنت نفيسة ولدين توأمين فحسبنا أن العداوة بينها وبين النسافة سوف تزول أو حتى تنقص لكنها زادت، زادت وفاحت رائحتها عفنا وتهما متبادلة بالفسق والفجور وكل ما يشين الطرفين، الخطير أنه لم يعد هناك من يهتم بالتدخل لإطفاء النار، ربما تدخل ناس في السر لتزويدها اشتعالا، ولم يعد هناك أي رجاء في التعايش بين امرأتين أكلت كل واحدة من لحم الأخرى بحسب قدرتها على الأكل والهضم، وقال عقلاء لهم أغراض للولد:

ـــ زي ما دخلتم بالمعروف، تسيبوا بعض بالمعروف.

ووافقت النسافة، لكن العقلاء نصحوها:

ـــ بس خسارة اللي ح تأخذه.

ـــ ما هو إحنا ما فيش ف إيدنا غير كدة.

ـــ لا فيه..

أشار العقلاء بنقل ملكية كل شيء لشخص مأمون، شخص من اللحم والدم لا رجاء منه ولا خوف من أطماعه، شخص مضمون في اليد اليمنى للنسافة وابن النسافة، وكان الشخص هناك في نفس الدار يتحرك أمام العقلاء، عريانا أو شبه عريان رغم تبدل أحوال أهلها، كان رجب الأعور أمامهم وأمامها مثل كتاب مفتوح على صفحات بيضاء خالية من أي كتابة، لا يملك هو نفسه إلا براد الشاي المخصوص وعلبة الدخان وفيها دفتر البافرة "الملوكي" يلف الدخان في أوراقها إذا رغب في أن يعتدل مزاجه أكثر أو أن ينسجم أكثر فيدخن لفافة لفها بأطراف أصابعه ليوفر في تكاليف التدخين أيضا مثلما يوفر اللقمة والهدمة لصالح ابن المرحوم فرج الله، اليتيم المحتاج إلى كل قرش ليسنده بحسب ما كان يقول لكل الناس صادقا وهو يدافع عنه إذا اشتكى منه أحد.

ـــ يا ناس حرام عليكم.. دا يتيم ومقطوع ووحداني، اللي زيه تجوز عليه الصدقة وفلوس الزكا.

ـــ أصل أنت نايم على ودانك يا رجب، عصام دخل ف ديوان الأعيان وأصحاب الملك الأكابر، أنت أهبل ولا بتستهبل؟

ـــ ولو.. ولو.. برضه غلبان.

ولم يكن هناك أي جدوى من الاستمرار في مجادلة رجب الأعور حول فكرته عن عصام ابن النسافة وابن فرج الله.. كانوا يريحون أدمغتهم ويكفون عن مجادلته ما دام مصدقا نفسه على هذا الحد وعاجزا عن اكتشاف كل ما تغير في حياة الولد وحياة أمه منذ زوجت البنت الكبرى للغريب لابس العقال وبعد أن زوجت الصغرى للصول عسران وجرؤت مرة على سب حضرة جناب العمدة عندما بدا لها أنه انحاز إلى بنت نفيسة، ولأنها كانت بحساباتها عركة العمر كله فقد تعاملت مع كل الناس من أول وجديد بحسب مواقفهم معها أو مع بنت نفيسة، ولأنها عركة العمر كله رمت النسافة بكل ثقلها بأمل أن تنتصر، كأنما أعماها العراك عن رؤية ما كان يلزم أن تراه، كان العقلاء أو من فكرت هي أنهم عقلاء يأتون ويتكلمون بحسب هواها وبحسب ما تود هي أن تسمع، وفي كفرنا المنقوش بكل الألوان ينطق اللسان أحيانا بغير ما هو في القلوب، وربما في مثل هذه الحالات ينطق اللسان بحماس أكثر وببراعة أكثر، قال ابن الغباشي للست النسافة وهو ينظر إلى رجب الأعور في ذلك المساء:

ـــ علي الحرام من ديني أطلعكم منها زي الشعرة ما بتطلع م العجـــين، هـــي حتـــة الأرض المكتوبة باسمها وبس اللي مش ح أقدر أتصرف فيها براحتي.

ـــ حتة الأرض دي ما هي خلاص يا بو الغباشي، دي معاها عيلين وح تأخـــذ نفقـــة ومؤخر صداق وعدة.

ـــ بلاش طلاق يا ست أم عصام؟

ـــ لا ح يطلقها.. لما يكون آخر يوم ف عمري وآخر حفان قمح في داري..

ـــ نبقى نشوف كلام أبو الغباشي.. أهو شغال ف المحاكم طول عمره ويعرف ســـكة الخلوص يا ست أم عصام، إحنا تهمنا مصلحتك.

على هذا النحو تحدث أقدم شيخ بلد في الكفر، الحاج داود أبو راضي، فجهزت النسافة نفسها لسماع كلام ابن الغباشي، ذلك الذي اقترح نقل ملكية الدار والأرض وكافة ما تملك هي أو يملك عصام إلى رجب الأعور وساعتها لو لفت بنت نفيسة ومعها ألف عمدة مثل عمـــدة كفرنا على أبواب المحاكم فلن تحصل على شيء، لا مؤخر الصداق ولا نفقة لها قيمة لهـــا أو للولدين التوأمين، واشترط أن تكون الكتابة والتسجيل قبل الطلاق، تهريبة يلجأ إليهـــا النـــاس عندما يتكايدون ويتعاندون فيكفرون بالنعمة وينكرونها، كلام سمعناه قبل ذلك مئات المـــرات ورأيناه يتحقق بالفعل، لكن العبرة بالختام، ختام لحكاية النسافة وابن النسافة لم يكن يخطر على بال كما تعرفون، وأنا فكرت أنه ولا بد كان وراء تلك النهاية تدابير وترتيبات معمولة بوعي، وعي شياطين وأبالسة يستخدمون الناس لتحقيق أغراضهم، ومهما كان وعي النسافة فهو وعي امرأة غريبة جاءت من خارج حدود كفرنا "التفاحي" لتعيش وتصعد وتملك وتجعل اسمها على كل لسان، لكنه خانها الوعي، خانها الوعي لأنها صدقت كل ما كان يقال لها بهدف إرضـــائها أو مجاملتها أو التظاهر بالوقوف إلى جانبها في وجه خصومها، والعناد يـــورث الكفـــر كمـــا تعلمون بالإضافة إلى قلة التمييز الواصل إلى حد العمى، كان شيخ البلـــد داود أبـــو راضـــي والذي هو ابن عم عمدة الكفر يذهب إلى دار النسافة، يجبر خاطرها بكلمات طيبة، يطالبهـــا بالسماح والصفح عن البنت التي قل أدبها وطال لسانها على أم رجلها وصاحبة الفضـــل فـــي تنصيبه نفرا معدودا وسط ناس الكفر، كلام لا شبهة فيه ولا شك، ورجل يقصد الخير والصلح ومعه في مشوار الذهاب والرجوع ابن الغباشي الذي كان يحرث لها الأرض، أرض الخصام طبعا بلسانه المدرب على الكلام في قضايا المحاكم وأقوال المحامين والقضاة وموظفي الشهر العقاري وغير ذلك من الجهات، يحرث أرض الخصام والبنت في دار أمها غضبانة ولا مانع عندها من الرجوع لو تنازل عصام وتعطف بحسب ما كان يقول شيخ البلد، لكن الولد ركـــب دماغه وركبت أمه دماغها، رأساهما وألف سيف أن لا بد من رد الصاع صاعين، وقلة الأدب بانتقام لا كان ولا جرى، وأنا نبهت النسافة بأنه في مثـــل هـــذه الحـــالات يكـــون الخـــروج

بالمعروف أفضل، أو الاستمرار بالمعروف أرحم من أجل التوأمين، سمعت كلامي وتغيرت لهجتها في الكلام، بدا لي أنها وضعتني في خانة أنصاف الخصوم وأنا الخائف عليها من التمادي في كل هذا العناد، قلت لروحي لو جاءك الغصب يا مدندش فاعمله طوعا ولا تخسرها، كنت مندهشا مما أصابها إلى حد الشك في كلامي وهي التي كانت تعرف طوال الوقت أغراضها وتحققها غرضا في إثر غرض، وكانت تعرف كيف وإلى أي حد تخاصم ومتى تتساهل وتصالح أو تسامح أو حتى تسعى للحصول على عفو الخصوم أو تتشدد وترفض، لكنها في هذه المرة كانت قد فقدت التمييز بين الصاحب والخصوم، اختلط عليها الأمر وبدا لي أنها تضرب دماغهما في جدار صلب ولا تحسب حسابها لاحتمالات الخسارة، على الأقل خسارة الناس الذين وقفوا إلى جانبها ومن بينهم العمدة، صدقت كل ما قاله ابن الغباشي عن إمكانيات تسليم الأرض المكتوبة باسم بنت نفيسة إلى من يزرعها ولو بعقد إيجار مزور، وأنا يا ناس جربت ناس كفرنا المدفونة في قلوبهم كلمة الحق والمنطوقة على بعض ألسنتهم الأكاذيب المزوقة بمعسول الكلام، قلت لروحي: أنصح صاحبك من الصبح لحد الضحى.. وأمسك لسانك حتى لا ينفلت مثل جواد جامح بلا لجام ويقول الكلام الصريح، الكلام الصريح يا مدندش يكره فيك الأكابر ولا يحمي الفقراء أو الطالعين على السلم ينظرون إلى أعلى ولا يعملون حسابا للرماد والتراب ينزل فوق رءوسهم ويعرف حدقات العيون.

قال دواد أبو راضي للنسافة:

ــ كانت غلطة يا ست أم عصام، البنت دي ما كنتش من قيمتكم، طيب علي الحرام لو طلبت عيلة من عيالي كنت أجهزها وأوصلها لحد باب الدار..

ــ وهو حصل إيه يا شيخ البلد؟.. الغلط يتصلح، وأنت أقل واحدة من بناتك ح تشرفنا وتطلع بينا العلالي، بس أنت توافق..

ــ يحلها ربنا..

ــ نقرأ الفاتحة..

وقرأنا الفاتحة.. وانفتح مشوار نقل الملكية باسم رجب، وبين يوم وليلة صار المالك الرسمي لكل الأرض وما تحتويه الدار، لكن رجب خدع الكل ومات، مات دون مقدمات، لا مرض ولا رقاد ولا شكوى من أي شيء.. الأعمار بيد الله طبعا، لكن الله جعل لكل شيء في هذه الدنيا سببا، وأنا سألت نفسي عن أسباب موت رجب في ذلك التوقيت الغريب فلم أجد عندي أو عند غيري جوابا للسؤال، كانت الأسئلة تدور في مدارات أخرى، الورثة، ورثة المرحوم الذي لم يخلف للدنيا من صلبه وريثا شرعيا والذي تتشعب فروع ورثته الشرعيين وتتزاحم، تتداخل مثل فروع جميزة كبيرة في كل اتجاه، أخوات وأولاد أخوة وأخوات وأصحاب ديون مكتوبة لم يكن يحسب حساباتها أحد.. ديون مكتوبة ومختومة بخاتم المرحوم

وبصمة يمينه، وأنتم تعرفون ما يجري في مثل تلك الحالات، تتـــوزع التركـــة بحســـابات لا فصال فيها ولا عواطف، الغريب أن كل الأوراق كانت لا تزال في قبضة شيخ البلـــد وشـــيخ البلد تابع للعمدة، والعمدة في مثل هذه الحالات حاكم بالعدل والشرع والأصـــول، والغريـــب الغريب يا ناس أنه في عصر نفس اليوم كانت بنت نفيسة قد حصلت على كل محتويات الدار المسجلة في قائمة المنقولات، أخذتها وتركت الدار على البلاط فعلا، وكما يقولون في كفرنـــا الليموني مال تجيبه الرياح تأخذه الزوابع، فهل كنست زوبعة العمدة كل مـــا حوطـــت عليـــه النسافة وابن النسافة في غفلة منا، كنسته وأعادتهما إلى أيام البدايات الأولى التي تعرفونهـــا، لكنه لم يكن قد تبقى عند النسافة نفس القدرة على معاودة النسف في الأجران، ولا كانت قـــد حافظت على عطف الأكابر عليها أو استعدادهم لمساعدتها في أن تصلب طولها وسط نـــاس الكفر أو تقيم للولد عوده الذي انحنى قبل الأوان.

لكنه لا شيء يبقى وأنتم تعرفون، حتى حضرة جناب العمدة الذي هو في نهاية الأمر من بني آدم مثلكم لم تطل فرحته، فلقد جاءت نهاية الأفندي المغدور لينشغل الناس بها زمنـــا وتلهيهم عن المصير الذي صار إليه الكفر وناس الكفر وعمدة الكفر "المشمشي" فـــي الـــزمن "المشمشي".

المغدور وأيامه

سأحكي لكم عن أيام المغدور المعدودة والمحسوبة، تلك الأيام التي يصعب نسيانها والتي شاعت أخبارها في كل الناحية والنواحي المجاورة لكفركم "الحنبلي"، عن ابن البلد الذي قالوا وهو مرمي ينزف قطرات الدم الساخن أنه غريب مضروب بعيار غريب آخر، أنا صدقت والناس صدقت أو كانت عندنا جميعا رغبة في التصديق، ولناس كفرنا قدرات مشهودة في التظاهر بعكس ما يعرفون والنطق بمعكوس ما يرغبون، كان المنظر غريبا على العين محيرا للعقول، بدن مرمي ومحاط بذيول جلابيب الخفراء، والعمدة مسنود على حديد الكوبري وسط رجاله يشيرون إلى كل خارج من حدود الكفر بالرجوع، اقتربت أنا من حضرة جناب العمدة وسألت وجاوبني، نصحني بتأجيل الخروج من دائرة الكفر لحين وصول النيابة وحكيم المركز للفحص والتحقيق، خوفني من أن يطول ذيل جلبابي نقطة من دم الغريب تجرني غصبا عني للسؤال الصعب عن علاقتي بالغريب، قلت لروحي ساعتها أنه لا شأن لي بمن يعبرون فيسقطون عند حدود كفرنا "السنجابي" والعمدة رغم حداثة عهده بعمادة الكفر عارف مصلحة الكفر وناسه، وأنا كدت أرجع مثل كل الناس الصاحية في تلك الساعة البدرية بعد الفجر وصلاته وبزوغ ضوء النهار، لكنه حدث أن سمعت أنة مجرد أنة أعادتني وألقت بي في سكة العناد الحصاوي فكان ما كان مني ومنهم في ذلك النهار البعيد، كل هذا لا يهم الآن، لا يهمني على الأقل لأنني سوف أبوح لكم بكل شيء في الوقت المناسب، ما يشغلني الآن هو سر انشغالي بالمغدور ابن عوف، أنتم تعرفون أن كفرنا مفتوح من كل نواحيه على "البحري"، ناس تدخل وناس تخرج والناس يا ناس أنواع، ناس تدخل وتخرج مثل ريح البطن لا وزن ولا معنى، ناس فاترة وعابرة مثل أي شيء فاتر وعابر، لا تلفت الأنظار ولا تنبه العقول عكس سيد أفندي، سيد أفندي كان جمرة نار لهيبها يخطف العيون الغفلانة ويصحي النفوس "السهتانة"، وصوت الجمر يا ناس لا يسمعه إلا الموعود بالسمع والمكشوف عن قلبه الحجاب، وأنا بعد الذي جرى وكان في أواخر الأيام زاد عشمي في ناس الكفر من جديد، صحيح أنني كنت في بعض الأوقات أيأس منهم، نركب خيبة أملي فيهم جمل الملامة والعتاب ونسرح في

الدروب، أقول لروحي "أنت يا مدندش تؤذن في مالطة" تعدد مثل النسوان وتندب، وأنا أبـــوح لكم الآن بكل ما كان، حتى خوفي الذي أسكتني أبوح به وأعترف لكم بأنني خواف بطبعي من لساني المفلوت، لساني اللتات العجان الفتان المعاند، واللسان المفلوت قادر أن يشـــد صـــاحبه وراءه إلى أجله المحتوم قبل الأوان بأوان، وأنا شفت بعيني رأسي موتي ومـــوت المغـــدور، شفت دم الموت وهو يتقاطر نزيفا يوحي بالصحو إلى الأرض فتشربه الأرض الخرساء التـــي لا تشبع أبدا، أنتم تعرفون أكثر مما أعرف أمواتكم القدامى الذين غدرت بهم نبابيت وشماريخ وبنادق الخصوم، وأنا لم أشعل أيامها بالتعديد قلوبكم المردوم عليها بنعمة السكوت والنســيان، بيني وبينكم كانت عدودة أمل يا ناس، عدودة تحلم بإزاحة الهم الثقيل الراكز علـــى القلـــوب، عدودة وجعت قلب عمدة الكفر أيامها أكثر مما وجعت قلوب الناس، وسوف أبين لكم ذلك في وقت آخر، أنا نفسي كنت قد وعدت بأن أكف، وعدت العمدة مرة، لكن وعد اللســـان شـــيء والقدرة على إسكاته شيء آخر، ثم إنني كنت أقولها لروحي، لكن عيال الكفر ملاعين سمعوها وداروا في دروب الكفر ورددوها، سمعتها نسوان الكفر وقالتها العجائز بتحريفات غيـــر مـــا قلتها في المغدور الذي عرفته وجالسته وسمعته، عرفت أشواقه الساكنة في حشـــا قلبـــه كـــل سنوات غيابه عن كفرنا "الدندراوي"، كلام لا يخص ندابة ولم تسمع على وزنـــه الآذان فـــي سيرة الأموات.

ميـــن رجعك يا بنـــي مين رجعك للموت؟
إزاي كـــــدة تسيبني للنطع والهلفـــــوت؟
مش كنـــت جاي تبني وتوعي ناس البيوت؟
يطولوك نيـــاب الديابة وينهشوك وأنت ساكت؟

أنا قلت لكم أنها كانت مجرد أنة، أنة واحدة سمعتها منه، هل جرب أحدكم أن يصحو من نومه العميق على صوت أنة أو همسة لطفل أو طفلة تسبح في بحر نومها؟ أنا لم أجـــرب ذلك أبدا لأنني لم أخلف للدنيا أي خلفة من صلبي، نصيبي من الدنيا أن أكتفي بالنظر والسماع والقول، وفي هذا الصباح البعيد سمعت وقلت ونظرت ودخلت التجربة من أوســـع الأبـــواب، كأنني كنت الأم والأب يصحوان معا على أنه الموجوع، كأنني عوضت حرماني من الخلفـــة في تلك اللحظات، سمعته فأحياني من مواتي وأنا الغريب المقطوع من شجرة الأموات جربت، صحيح أنني عشت في كفركم "الشلبي" وحدي، لا زوج ولا خلفة ولا حتى حلم في مســـتقبل، لكنني جربت وأنا أسمع الأنة، أستعيدها على مسامع نفسي بنفسي، وكأنها شريط غنوة ترتاح لها غفلت عن سماعها لحظة واستعدتها لنفسك بنفسك، صحيح أن الأنة كانت وحيدة ولم تتكرر لكنني استعدتها وأفقت لروحي فالتفتت، ولم أتردد في الرمح ناحية البدن المرمي، ناحية ســـيد أفندي المغدور والمحروس بأبدان الخفراء وبنادقهم، أطل على الوجه المطلـــي بخيـــوط الـــدم

وأرى العينين الصاحيتين تنطقان بكل اللوم وكل الرجاء وكل الوجع وكل العشم، تتحركان ناحيتي فتجعلني حبلا واصلا بين احتمالات الموت المدبر بخسة وإمكانيات الحياة، لو كان أي واحد منكم مكاني يا سادة من كان يسكت؟ لو تأكد لأي بني آدم أن المرمي عند مدخل الكفر هو فلان ابن فلان ابن فلان ابن فلان ولتاسع جد حسب ما تحفظ الذاكرة، لو تأكد النفر من الشبه وأشكال الملابس وخصوصية النظرة ونبرات الصوت بينما الخفراء يحرسونه ويحيطونه بأمر حضرة العمدة حديث الوعي والخبرة، الجاهل بالناس ومقامات الناس، القائل عن ابن أصل الكفر غريب مجهول، مجرد عابر سبيل مضروب ودمه الذي ينزف في تلك الساعة البدرية من الصباح، لو حصل ما حصل وكشفت الكذبة العرجاء عن خسة التدبير فهل يملك الإنسان المقدرة على السكوت؟ هل يستطيع أن يطبطب على كتف العمدة ويقول له عفارم عليك يا سبع؟ هل كان يقول لروحه "وأنا مالي"؟ ويهرب بجلده، أن يحتاط ويلاوع ويتظاهر بأن المرمي على الأرض يستاهل ما جرى له؟ لا أظن.. لا أظن، ومع ذلك ليته حصل، ليتني فعلت، لكنني نسيت روحي ونسيت أنني في زمام الكفر "الشلبي" ونطقت، كرهت ساعتها العمدة وأباه وجده، وطال لساني أو حاولت، بكل عزمي حاولت أن أعمل لهم مقدمات جرسة، لكن كفوف الخفراء الخشنة وكعوب بنادقهم أسكتتني، نزل على لساني شلل وعلى أطرافي شلل، انخرست، أبوح لكم بسر، أشعر أنني ساهمت في قتله، في تصفية دمه على التراب، صعب علي حاله فأخطأت ونطقت فانضربت وانخرست وفهمت أن حركتي في المكان تساوي موتي، لعلني خفت على روحي فحافظت على حياتي بالانكماش في المكان مشاركا في الجريمة بالسكوت، لعلني لو كنت حويطا لكنت تظاهرت بالتصديق وتباعدت في اتجاه البندر أبلغ الحكومة أو الإسعاف، أو حتى أتراجع إلى الكفر أهمس بما جرى لأي واحد من أولاد عوف وهم كثار كثار مثل ذكور النحل الذي يسعى وراء الملكة، مجرد سعي ناتج عن الفراغ ودون أمل كثير في أن ينالها، وحتى بوعي أن الذكر الذي سوف يصل إليها وينالها مقضي عليه وهالك بعدها، لم أفعل أي شيء، لا هربت ولا قمت ولا سكت ولا حتى تنفست بكلام له معنى، حتى بعد أن جاءت شمس الضحى وزادت الحركة وتبادل خلق الله الحكاية الحقيقية عن المغدور ابن عوف الذي تلقى رصاصة في دماغه أودت بعمره والأعمار بيد الخالق طبعا، حتى عندما اكتشفوا الخدعة المدبرة لم ينطق أيهم بشيء فهل كنت أنطق؟ حتى عندما أيقنت أنه انتهى وما عاد فيه أي رجاء لم أنطق، رأينا صالح عوف يجري في اتجاهي بقدميه العاريتين، يرفع عن البدن نبات الحلفا وحشائش الجسر، يتأكد أنه هو مثلما تأكدت أنا قبله، يلطم كما تفعل النسوان ويهدر مثل ثور هائج مسلوق ومسلوخ جلده حي في نفس الوقت، كان يهدر ويرج الأرض وأنا أنظر ناحيته فقط، لعلني كنت أنظر إليه مثلما فعل الأفندي معي قبل ساعة زمن وهو حي، يدعوني لأن أحاول، أكتم بيدي جرحه، أو أحمله على كتفي وأرمح في

سكة البندر، أطلب الإسعاف فلعل وعسى أن تكون الطلقة على السطح جارحة لكنها ليست بقاتلة، لعلني كنت أنظر إلى صالح بنفس الطريقة ولعله لم يلتفت أو التفت التفاتة هينة لانشغاله بما هو أهم وأخطر، كنت أنازع بوهن وحذر أرغب في البوح بشيء وأعترض على فكرة البوح في ذات الوقت، كنت قد أسلمت روحي للموت والشلل في ذات الوقت، مثل أرنب بري لا يملك القدرة على تخطي حاجز الهلع والخوف الكامن داخله من البني آدم الذي كان في ذلك النهار الأغبر مجرد عمدة مبتدئ في كفرنا "العجوري" ، وعندما جاء وكيل النيابة قلت لن أقول، هكذا فكرت، لو قلت، لو تجرأت ورحت وقلت هل كان يصدقني، وإذا صدقني فمن أدراني بحقيقة الفاعل، قد لا يكون للعمدة الشلبي صلة من أصله بمن ضرب، وربما كانت مجرد صلة تحريض ينحبس فيها عدة سنوات "وتبوش" القضية، وإذا لم يصدقني وكيل النيابة فهل يسكت العمدة؟ أم أنه سوف يستف لي التهم ويأتي بشهود زور على جنوني وإجرامي وقلة أدبي، شهود من كل أكابر الناحية على سرقاتي من غيطان الخلق، وشهود على علاقاتي بأولاد الليل وقطاع الطرق، وتهم كثيرة تلبسني مثل ثياب تفصيل وبالمقاس، دبرتها في عقلي وباختياري أطفأت نار قلبي بالخرس، وتواطأت مع العمدة الذي قالت عيناه بدلا من لسانه، تتوعدان باقتدار وقدرة، أنا لم أجرب أن أعرف من هو أكثر منه قدرة على الفجر في كل من عرفتهم في كل عمري، كان قادرا فاجرا بحق، لا خجل ولا حياء والعينان الضيقتان تتسعان غضبا في محاولة للتخويف، قلت لنفسي أفوت عليه وعلي الفرصة، ألعب دور الخواف، الأرنب البري الغريب الذي تخطى حدود المسموح. كان الأمر قد انتهى وعمل الناس ما يلزم، أخذوا تصريح الدفن وحافظوا على كرامة الميت، وفي كفرنا "البقري" يقولون إن كرامة الميت دفنه، دفنوه مثل العار في الليل الساكت الذي يزود سواده اللطم والندب والصوات، وأنا قلت في نفسي العدودة قبل أن ينطق بها اللسان بزمان، ومن كان له في كفرنا ظهر يا ناس لا ينضرب على بطنه، فما بالكم بمن له في الكفر ألف ظهر وظهر؟، وما بالكم بمن نزف الدم حيا في حراسة عمدة جاهل بحقيقة خلق الله في الكفر "الترابي"، أنا لا قلت ولا بحت، سألوني من بعيد لبعيد عن أشياء، سألوني من بعيد لبعيد عن أيام المغدور وكلام المغدور فجاوبت من بعيد لبعيد، وعندما اعترض حضرة جناب العمدة على آخر عدودة قلتها في "الجدع" سألوني عن سر اعتراضه، قلت لهم قلبه خفيف وجلده ناعم، وعندما سألوني عن أسباب ابتعادي عن الدوار وقعودي عند بوابتهم قلت لهم إنني أميل لهم، لدربهم، لناسهم، لشهامة رجالهم فهل في هذا أي شيء غريب؟ لحم أكتافي من خير أولاد عوف يا ناس.

ـــ "إن قلت ما تخاف وإن خفت ما تقول".

قالها صالح وهو يقيسني بنظرة، كان معه حسان ابن طه وابنه طالب الحقوق، قلت له أن يتركني في حالي، وقلت له إن العين وإن كانت بصيرة فهي لا تعلو عن الحاجب، دعاني

حسان لشرب الشاي فاعتذرت بأنني كرهت الشاي وضياع وقت الناس في إعداد الشاي، قلت له إن أكره شيء كرهني في شاي الغيطان هو انطفاء اللهب والجمر تحت بزبوز براد الشاي المغلي في الراكية، وقلت:

ــ المرحوم كان جمرة نار.

ــ ولسة في الحشا جمره يا مدندش.

ــ خايف يكون كلام في الخلا يا زين شباب الكفر، يا عم الشباب وخالهم وأبوهم.

ــ أقعد يمكن تكون دليل التايه وينوبك م الحب جانب.

ــ يا ريتني كنت شفت ولا سمعت، كنت اتكلمت يا سي حسان.

ــ ولا حتى شميت ريحة الريح؟

ــ يا ريت.

هربت من الجواب بالسكوت وهربت من كوب الشاي، لكنني نظرت إلى صالح نظرة، ربما أكون قد تواعدت معه، نسج السكوت بيننا خيطا نحيلا نحيلا مثل خيط عنكبوت في قاعة مهجورة، وكان للخيط النحيل بيني وبينه طرفان مثل كل الخيوط المنسوجة بيني وبينه، علاقتي به كان لها طعم ولون غريب، فكان كل واحد منا يعرف أن الآخر هناك، موجود وحاضر، سامع وفاهم حتى ولو كان الكلام موجها للغير، كان يبدو دائما أنني لا أهمه في شيء، أنني أقل من أن يعترض على وجودي، صالح لم يعترض أبدا على وجودي في المكان، لكنني كنت أشعر أنه يفهمني ويقدرني من غير اعتراف منطوق، ما جدوى البوح بالرضا عني من واحد مثل صالح عوف، وما دامت علامات الرضا بالسكوت ظاهرة فماذا كان ينقصني منه؟ وهو الغشيم الغشيم المستعد أن يعارك الناموسة إذا زنت على مقربة من أذنه، كان في بعض الأحيان يوجه الكلام لغيري فأفهم أنه يقصدني، تصلني رسالته، وكنت أقله، أقول الكلام لغيره في حضوره وأشعر أن رسالتي وصلته وفهم قصدي، ربما كنا أولاد نجم واحد أو ندور في فلك واحد ونخشى الاصطدام، نتحاشاه ونتباعد رغم القرب، وربما لم أوافقه في عمادة الكفر التي تركها تطير من بين أصابعه وكأنه ــ أستغفر الله ــ يرفس النعمة، لو كان احتفظ بها ولم يفلتها هل كان يحصل في كفرنا "السنجابي" ما حصل يا ناس؟ لكنها على كل حال راحت عليه وعليهم.

نرجع لحكاية الخيط العنكبوتي الواصل بيني وبينه، شدني الخيط في تلك الليلة ومشاني من داري لحد غيط صالح البعيد عند الترعة الكبيرة التي تفصل زمام كفركم عن زمام أرض سكان عزبة "الغرباوي" وكان صالح قد هجر الكفر والدار، سكن الغيط البعيد وصار ينام مثل وحش البراري في خلاء الغيطان أو في زريبة المواشي، طلباته يقضيها له البعض من الكفر أو من دكاكين العزبة، لكنه حرم على نفسه السكن والحريم وغسل الثياب أو تبديلها بعد ما

حصل الذي حصل للأفندي المغدور، لعله كان يشعر بالذنب لأنه لم يكن هناك ليحميه من العيار الطائش الذي طاله أو العيار المتربص الذي أودي بعمره، ولعله كان يلبس عاره ويتوارى به بعيدا عن عيون الخلق، لكنه كان هناك في الطل رغم برد الشتاء يتغطى بحرام خفيف مثل الشاش، فيه من الحرام اسم الحرام ومن الصوف ملء قبضة يد في برد "طوبة" وعراء الغيطان، كان قد صام عن الكلام ونصف الزاد، يأكل الضروري ليحافظ على عمره، يكثر من شرب الشاي وتدخين المعسل، يدخن حتى تركبه الكحة ويحتقن وجهه بالدم، تحمر عيناه فتبدوان للناظر مثل عيني ذئب شارد وهربان من قطيع كلاب صيادة لا تكف عن النباح، كان خيط العنكبوت يسحبني ناحيته وسط النهار أو بدايات الليل قبل ذلك، لكنه لم يسحبني إليه مثلما فعل في تلك الليلة بعد أن انتصف وقبل أن يؤذن فجرها للصلاة، ووسط ناس الكفر كنت أتوه، أشاركهم جلسات القيلولة أو سهرات الصمت حول براد الشاي وجمرات اللهب وهي تحرق المعسل وكأنها تطفئ ما هو قابل للاحتراق، ووسط الناس كنت أتحاشاه ولا أتصادم معه. لكنه كان في ذهابي إليه في تلك الساعة وأنا العارف أنه ربما نام أو أحاطه القلق فارتكز نصف نائم نصف صاح وقد توحد مع روحه مثل نجم وحيد في سماء شتوية ملبدة بالغيوم والسحب وإمكانيات الرعد، كان المشوار طويلا والتلفيحة التي أحطت بها رأسي وأذني وعنقي عاجزة عن صد الريح، لكنها قدماي تتابعان السير، كأنه كان نذرا ويلزم أن أوفيه رغم الصعاب، وأنا من وفى في كل عمره كل نذر، هل كنت نذرت نفسي مرة من غير علم نفسي لريح الشتاء وعواصف الأيام؟.. هل كان يلزم أن أذهب إليه في تلك الساعة لأشير إليه بطرف إصبعي فيفهم عني رغم السكوت وعدم النطق؟ ربما كنا قد تواعدنا على المكان وحددنا الزمان في غفلة منا، ذلك أنني وجدته على نفس الحال الذي تخيلته، مرتكزا على كفه المسنودة على ذراعه المسنودة على كوعه المسنود على "طوالة" المواشي الخالية وسط "الزريبة" عيناه تنظران إلى السماء المعبأة بالسواد والسحب المعتمة، لعله كان يجاهد أن يصطاد نجما بعيدا يتخفى وراء السواد، يجاهد بيأس كامل وأمل عنيد في أن يراه.. وعندما دخلت لم يتحرك من مكانه ولم يلتفت ناحيتي أو حتى يهتز.. سمعت صوته الآمر يهمس بود:

ــ اقعد يا مدندش.

وقعدت، لعلني نظرت في اتجاه الفراغ الذي كان ينظر إليه أبحث بدوري عن النجم المستحيل أو الشهاب الغارق في بحر السواد.. وكان هناك في الراكية بقايا جمرات توشك على الانطفاء تحت رمادها الهش، نفخت الرماد فبان ضوء اللهب الشحيح وكان هو ما زال على حاله، ومن البعيد البعيد سمعت صوته رغم الاقتراب إلى حد التلامس:

ــ ولع الراكية.

كنت أعرف الركن الذي وضع فيه عيدان الحطب وقطع الخشب الجاهزة للاشـــتعال، فتحسست بكفي وحصلت على عيدان الحطب، لكنني لم أجد غير كتلة خشب مستطيلة، شريحة وحيدة أطول من طول ذراع، أخذتها وركنتها إلى جواري بينما كسرت عيدان الحطب الجاف وألقيت بها فوق بقايا الجمرات الملتهبة، ونفخت فيها عدة مرات، ولا بد أن رمـــاد الجمـــرات غطاني قبل أن يتناثر الشرر القليل ثم يتكاثر ويتزايد قبل أن يندلع لسان النار، أسمع طقطقات العيدان وهي تزغرد للسان النار أو تزغرد به، وأراه وما زال على حاله وإن التفت نـــاحيتي بنظراته نصف التفاتة، بطرف عينه يراني وبطرف تلفيحتي أراه، وضعت كتلة الخشب فـــوق الراكية فبدت لي مثل "معدية" عريضة فوق شاطئين لبحيرة مدورة يطلع منها لسانان من لهب عنيد، يحوطانها وهي ساكنة على حافة الراكية رغم هوس النار ووعيدها المسموع، وبـــدأت في ضوء اللهب أراه ويراني، يعجز كل منا عن إنكار وجود الآخر، أما أن يسعى أحدنا وراء الآخر مسلما له بحق التقدم عليه أو أن نتعارك، نتقاتل مثل أي وحشين غريبين في مثل هـــذا العراء وذلك الصقيع الذي يحيطهما رغم وجود النار وقد تمكنت من منتصف كتلة الخشـــب، أحاطتها مثل حزام عريض ونالت وسطها فاشتعل رغم ســـلامة الطـــرفين وابتعادهمـــا عـــن النيران، وبكفه ولا أدري لماذا فعل، رأيته يهوي على كتلة الخشب الملتهبة والساكنة في وسط النار.. يهوي عليها فيقسمها نصفين، والغريب أن النصفين لم يكتفيا بالانقســـام وإنمـــا ســـمح أحدهما لآخر بأن يركبه ركوبا كاملا.. وفي وسط الراكية صارت كتلة الخشب كلها محاطـــة بلهيب النار بعد الانقسام.

ـــ قول..

قالها فشعرت بأنني قابل للانقسام إلى نصفين تماما مثل كتلة الخشـــب، وفكـــرت أن الكتلتين من الخشب تطولهما نفس النار رغم ركوب الواحدة فوق الأخرى في قلب الراكيـــة، نظرت إليه وقلت باستسلام:

ـــ كان جمرة نار.

ـــ قول..

ـــ أنا كنت ناوي على سوق الخميس منعوني..

ـــ غنيها يا مدندنش..

غنيت الغنوة وشعرب بالدفء، كان خيط العنكبوت قد تحول إلى حبل تيـــل مجـــدول قادر على جر فحل جاموس، ابتسم لي واتفقنا بالصمت الذي أحاطنا على عدم الكلام فـــي أي موضوع، كان قد عرف ما يكفيه وكنت أعرف أنه عرف ما يكفيه ويعرف أنني عرفت أنـــه عرف ما يكفيه، كان الصمد يحوطني ويزيح عني رعشة البرد التي أوشكت أن تسكن بطني، وكانت السماء هناك مشحونة بالسحاب والرعد وربما بماء المطر أو كرات الثلج الصـــغير ،

وكان فراغ الغيطان يشهد أنني لم أبح بشيء ولا هو فكر في أن يسألني عن شيء على وجه التحديد، تمددت على الأرض فغطاني بطرف حرامه الخفيف الذي كان يسمح لصهد النار بالدخول إلى أطرافي يدفئها، وقبل أن أغفل أو أنام سمعت صوت الأذان ينادي لصلاة الفجر من زاوية عزبة الغرباوي، ربما سمعته بصحيح وربما خيل إلي أنني سمعته قبل أن أغطس في النوم ولا أصحى لروحي إلا على هزة من كف صالح، وكانت هناك رغم سواد الليل شمس طالعة ونهار قلت فيه الريح وسرحت إلى الأفق البعيد منه سحاباته المعتمة التي كانت تملأ سماء الليل ولا تنزاح.

لا أذكر كيف رجعت إلى داري في الكفر ولا أعرف بماذا كنت أحس، لعلني كنت أشعر بنشوة تحت الجلد وخجل في الدماغ، شيء مختلط ونادر الحدوث، كنت أسحب نفس وأتسحب في دروب الكفر وأنا ذاهب إلى داري، لا أرغب في النظر إلى أحد أو أن ينظر إلى ناحيتي أحد، كأنني كنت عذراء فقدت عفتها باختيارها ورضاها لحبيب قلبها الذي رغبت فيه وتمنت وصاله، سعت إليه ووهبته روحها ثم أفاقت على ضرورة الرجوع إلى دارها لتسكن وتتدبر أمرها في مستقبل الأيام، كأنني كنت فارسا قطع الطريق الصعب إلى مخبأ الغول، وبالحربة أو بالسيف مزق أطرافه وسيح دمه على الأرض ثم عاد، وعندما كنت في داري شعرت أنني كنت أتشمم رائحة الريح وأرى على نحو خاطف ما سوف يجري في كفرنا "العواف" من أمور في مستقبل الأيام.

ليلتها كنت أقبع في ركن المندرة المزحومة بالرجال، يحيطونه ويصبون عليه النظرات، وكان هو يتكلم بحماس لا يشوبه أي حذر، كأنما لم تكن للحيطان آذان في دار صالح، حتى عندما حذره حسان ابن طه مداعبا:

ــ الكلام ده يودي ورا الشمس لو حد مننا قاله.. بس أنت يا سي سيد باين عليك مسنود.

ــ مسنود بالناس.

ــ محدش في الحاجات دي بيعمل حساب للناس.

ــ طيب نسأل المدندش.

قالها سيد أفندي وهو ينظر ناحيتي، وكأنه مد ناحيتي حبلا وطلب مني أن أتعلق به وأخرج من أعماق الجب الذي كنت أتوارى فيه، أطلع إلى السطح وأبدي رأيا وسط أكابر ومدرسين وطلبة في الجامعة والمدارس، قبلها قلت لروحي كن في حالك يا مدندش، كل لقمتك بالسعي وأحمد ربك، مالك أنت بأيام الملك الذي طردوه أو أيام عبد الناصر التي جاءت بعد اللواء محمد نجيب، صحيح أنك يا مدندش بني آدم، لكني هل كل بني آدم منا مسموح له بأن يقول للخلق رأيه في الحكام؟ والرأي شيء غير التعليق السريع أو النكتة العابرة، قلنا نكتا

كثيرة في الملك واللواء وقلنا أكثر في عبد الناصر ونقول في السادات، لكن هل النكتة تقدم أو تؤخر يا ناس؟ ألف نكتة تفوت وألف نكتة تفوت، وألف ألف نكتة تتوالد وتموت لكن الحاكم يبقى حاكما والمحكوم محكوما، وهذه طبيعة الدنيا بأسرها، لكن يا مدندش الرأي شيء آخر، وما يقوله سيد أفندي رأي في الحاكم والناس ويلزم أن تقف معه أو ضده، كنت يائسا من الناس وسكوت الناس وكلام الناس، وكان هو يحلم بناس غير الناس، ناس تقول الرأي ولا تتردد، ناس تدافع عن حقها بلسانها وعقلها وفعلها، وجادلته، قلت له إن ناس كفرنا وكل الكفور المجاورة اختارت السكوت لأن الكلام طنطنة حروف، ولأن أدوات الفعل معدومة والوعي القليل مزروع في سكك السعي وراء اللقمة، وقلت له ما كنت أعرفه عن هوجة عرابي وأيام سعد زغلول والحماية وبنادق الإنجليز، وسألته إن كان الدم الذي سال قد بنى في الأرض قصرا للمكافحين أو حتى عشة؟ وقلت وقلت وقلت، كأنني كنت في جرة وخرجت للناس، كأنني كنت محبوسا في قمقم وفتح لي سيد أفندي الغطاء فتجاسرت ونطقت ونلت استحسان الكل بما فيهم سيد أفندي نفسه وختمت كلامي بالرأي الصريح:

ــ عبد الناصر كسر قلوبنا بالهزيمة وسلمنا للسادات. والسادات باع واشترى فينا وخد عمولته من دمنا!؟

كنت جريحا وكانوا جرحى، وكان سيد أفندي مثل جراح محبوس في غرفة مملوءة بالآهات والوجع، عاجزا عن معالجة الكل في نفس الوقت وعاجزا في ذات الوقت عن الاختيار، من أين يبدأ؟ وإلى أي موجوع يمد يده ويحاول أن يداوي ويخفف الآلام وبأي حق يترك الآخرين وهم ينزفون ويصرخون ويطالبون بتخفيف الوجع، وربما أشفقت عليه ساعتها وهو يتعرض لسخرياتهم في حلمه المستحيل، يستشهدون بكلامي وكأنه نهاية المطاف، خلاصة الحكمة الساكنة في القلوب وهي تواجه كلام الأفندية المطلي بآراء العقلاء الذين قرأوا كلامهم في كتب الجامعة ومطبوعات الحكومات، وأنا قرأت بعض هذه الكتب وكادت أن تبدلني، تغيرني، تنزع عن جلدي جلدي وتغطيني بجلد غيره، لكنني كنت مزروعا في طين الأرض، محميا برائحة الغيطان ونسيم الفجر وخبث الناس وحيطتهم من غريب حتى ولو كان أفنديا سرح في أركان المدن البعيدة مع أب له فات الكفر برضاه في رأي البعض وغصبا عنه في رأي البعض الآخر، وفي كفرنا يحق لك الخروج والدخول طبعا ولن يتغير شيء بشرط أن تكون على ذمة الكفر، مربوطا معه بخيوط الود أو حتى العداوة، سيرتك موصولة ودائمة وكأنك تارك فيه ظلك أو بعض نفسك، أولادك أو دارك أو ميراثك أو زوجك أو حتى عملة عملتها فلت بسببها الإعجاب أو الغضب، تخرج وأنت على ذمة الكفر وترجع في أي وقت حتى ولو عدت في أرذل العمر بعد تأبيدة قضيتها في اللومان مثل السعيد ابن نجاتي الذي قتل عمه وأمه ودافع عن شرفه فاستحق أن يبقى اسمه على ألسنة الناس رمزا للسكوت الطويل

انتظارا للوقت المناسب، وعندما جاء الوقت فعلها وسلم روحه لمأمور المركز، أيامها كان ناس من الكفر تقول إنه شهم وناس تقول إنه خسيس لسابق معرفته بمسألة علاقة أمه مع عمه التي فاحت رائحتها وزكمت كل الأنوف، كان يبدو مثل عبيط مفتوح الشدقين بمناسبة وبدون مناسبة، يسمع الكلام الجارح ولا يرد، وكان بعض شباب الكفر يزغده في صدره أو يلطشه بالكف على صدغه، لكن السر كان في قفاه، ذلك أنه عندما تلقى أول صفعة على قفاه أفاق، كان عباس ابن بحر هو الذي صفعه على قفاه وقال له في ساحة المولد:

ــ عمك راكب على جدار داركم حماري يا تيس.

يومها تحسس قفاه وردد:

ــ تيس، تيس، وكل وقت وله أدان يا عباس يا بن بحر، ياللي بنت عمك فرشت تراكيب الغيطان بثوبها للي يسوى واللي ما يسواش.

وضحك الناس، وضحكت أنا مثلهم، لكن ضحكنا تحول إلى اندهاش في فجر نفس الليلة ونحن نسمع ما جرى لأم السعيد ابن نجاتي وعمه، كان الرجل والمرأة هناك في نفس الدار أشباه عراية وفي وضع فاضح رغم حرصهما لحظة المفاجأة على التستر، وكان هناك إلى جوار الجسدين رأسان مفصولان على ما يبدو بضربة واحدة محكمة التصويب، ضربة قادرة ومغلولة ومفلوتة بعد طول السكوت، وكان السبب كما لاح لي ولكل الناس مجرد كف على القفا، لسعة غير محسوب حسابها جاءت من حيث لا يحتسب، من راحة يد عباس ابن بحر، ذلك الذي اختفى هو أيضا في نفس الوقت، كان السعيد قد أسلم نفسه لمأمور المركز، أقر واعترف بما فعل، وفي المحكمة دافع عن شرفه بكلام قليل لكنه كان حريصا على إبلاغ من جاءوا من الكفر بأن يقولوا لعباس ابن بحر إنه مديون بدم بنت عمه لناس الكفر، طلب المحامي الذي عينته الحكومة للدفاع عنه من قاضي الحكومة الرحمة وتخفيف الحكم على الجاني الذي نزع الله من قلبه الرحمة، فنطق القاضي بالمؤبد بدلا من الإعدام، من يومها ظل السعيد ابن نجاتي في ذاكرة الناس، لكن ابن بحر الذي اختفى لم يختف من الذاكرة تماما، ظلوا يذكرونه ويذكرون المثل القائل بأنه هناك في هذه الدنيا ناس بيوتها من زجاج لكنها لا تكف عن رمي الناس بالطوب، وأنا يا ناس كفرنا "المستكاوي" مندهش من ناس كفرنا "العنداليبي" الذي يتصرفون في بعض الأمور المتشابهة بطرق مختلفة، يتذكرون الجسور والرعديد، القاتل والمقتول، الجاني والضحية بشرط أن يكون ذلك في زمام الكفر وعلى ذمته، أما من تباعد أو ابتعد فلا يخصهم في شيء.. حتى لو كان ما يربطهم به هو الاسم والدم وتقاطيع الملامح وهيئة الأبدان.

نرجع لحكاية سيد أفندي:

هل كنت أنا أقرب إلى ناس كفرنا "العنابي" من سيد أفندي؟ هل كنت أنا الغريب الحقيقي المقطوع من شجرة الأموات أقرب لقلوبهم منه إلى هذا الحد؟ هل ظلمه الناس حيا وقد جاء إليهم بعد طول الغياب إلى حد أنهم كانوا يودون لو كنت أستطيع أن أنتصر عليه أو أن يشهدوا هزيمته ولو كان ذلك عن طريق الغريب المدندش؟ أعرف أنه تربي في الغربة لكنه مولود في كفركم "القراقيشي" عاش في المدن البعيدة، على غير إرادة منه، ومهما اختلفتم أنتم في مسألة حسن عوف مع عبد القادر فهو يا ناس منكم، رجع لكم بعد أن طاف ولف ودار في المدن البعيدة، صحيح أنه راجع ليكون قريبا من قبر ابنه، لكنه رجع، ناس من عواجيز الكفر قالت أنه أخطأ عندما ترك الأرض والناس والأهل وانقطع، وأنه أسلم روحه للمدن البعيدة، جعل شوارعها تسكن ذاكرته وذاكرة ابنه بدل الغيطان والسواقي وريح الأرض، واستسلم في أول عراك فاستحق النسيان، بينه وبينكم مسافة يصعب اجتيازها، مثله مثل الولد، ذلك الذي جاء بإرادته ليعرف ويتعرف ويكتشف، ربما لأن البعيد عن العين في كفرنا "الكموني" بعيد عن القلب، ما علينا، ناس أخرى من عجائز الكفر قالت كلاما آخر، قالوا إن حسن كان أضعف من أن يقف في وجه الأب القادر، وقالوا إنه اشترى عمره بالابتعاد.. وقالوا إن الولد مسكين على كل حال.. لكنهم جميعا، كل عجائز الكفر شعروا أنه لم يعد يخصهم، لا هو ولا ابنه الأفندي الراجع، كان الكفر بكل ناسه رغم اختلافاتهم اتفقوا عليه، كأنهم لم يباركوا يوما دخوله حدود كفركم "البنفسجي" أو معاملته على أنه واحد منكم، أنا أثرثر مجرد ثرثرات، أعرف ذلك، لكنني أفكر معكم بصوت مثلما كان هو يقول.. أفكر بصوت فاسمعوني.

المسألة في غاية البساطة، كان من الممكن أن يطلع منكم برضاكم أو غصبا عنكم، ويعود إليكم بالمثل، برضاكم أو غصبا عنكم، شيء مثل نقطة الدم التي تعصرها من إصبعك بعد شكة بالدبوس أو الإبرة، بإرادتك أنت رغم الوجع تعتصرها وبرغبتك أيضا تمتصها، دون أي احتمال للشعور بالقرف، هي نقطة من دمك أنت تدخل في فمك أنت باختيارك، ولو أجبرك الحكيم على ذلك ربما ترددت ألف مرة، ببساطة كان هناك حاجز غامض لا أعرفه يفصل بينكم وبينه، بيني وبينه لم يكن هناك أي حاجز أو مسافة، ربما لأنه وسط الزحام كان يبدو لي وحيدا مثلما أنا وحيد، وحيدا وحزينا ويحاول أن يتصالب بعسر، أن يحدثكم عن تاريخ الفراعنة أو يحكي لكم تواريخ الثورات أو عادات القدامى، كان يجاهد أن يصل إليكم مثلما أجاهد أنا منذ نزلت ميدان كفركم وورثت صندوق الدنيا وطبلة المدندش الكبير وصاجاته، ثوبه وزعبوطه وطرطوره وطول لسانه، أنا حسنين المدندش ابن حسنين المدندش مولود وسط ناس الكفر ورغم الاغتراب والابتعاد كنت أعود، لم يعترض أي نفر منكم على سفري أو رجوعي، ربما لأنني كنت أسافر وأنا على ذمة الكفر، ذاهب أو راجع، غائب أو مقيم وأنا على ذمة الكفر، أما هو.. فكان كما قال الجد طه في إحدى السهرات:

ـــ ابن البلاد البعيدة، مين يعرف إن كان هو هو اللي يخصنا ولا الخلق في المـــداين بدلوه، لبسوه بدلة وغيروا لهجته فصار منهم، يخصنا منه اسمه وكسمه، لكـــن بيننـــا وبينـــه حدود..

كان بينه وبينكم حدود.. وكانت بينه وبين صالح مسافة باتساع الغيطان التي زرعهـــا صالح وانزرع فيها، وكان يغني في الأمسيات أحيانا والخلاء يحوطنا وفي صوته أسى غويط غويط:

"أنا المصري كريم العنصرين "

فأوشك أن أقاطعه وأسأله إن كان بالفعل كذلك، لكنني كنت أخجل من نفســـي، أوبـــخ روحي لأنني نسيت أنه أول طرح مبروك ما بين أولاد عوف وأولاد شلبي، هـــؤلاء القـــدامى وهؤلاء الجدد على الكفر الذين أوشكوا على امتلاكه، وأحيانا كنت أرد عليه بحماس أكثر من حماسه:

"أنا المصري كريم العنصرين "

فأينا يا ناس كان المصري كريم العنصرين؟

بيني وبينه زالت كل الفواصل والحدود، ارتحت له وارتاح لي، كان يكاشفني وأكاشفه، يحكي عن سنوات اغترابه وأحكي عن سنوات الرحيل، السعي المجنون وراء اللقمـــة وأيـــام العشق التي جرجرتني وراء بنت العرب التي جاءت الكفر مرة تستجدي ما يجود به الأكـــابر فخطفت عقلي، أسرت قلبي وروحي. جعلتني أسعى خلفها منشدا للســـيرة النبويـــة والهلاليـــة وسيرة عنترة، أغني وترقص هي ومن كنت أحسبه شقيقها يلم النقوط، يكنز الجنيهات بدعوى أنه ينوي تجهيز البنت يوم يتقدم لها ابن الحلال الذي يستحقها، أيامها كنت أحسب أننـــي ابـــن الحلال الذي يعنيه حتى كان ما كان، حكايتي مع وهيبة قلتها له بكل ما كان فيها من تفاصيل، وكان يحسن السماع، يدعوك لأن تواصل الحكي دون حذر، تحكي وكأنك تقول لروحك فـــي الخفاء دون أي خجل أو تردد أو رهبة، وهيبة لحست عقلي وتوهت روحي وأفقدتني كل أمل في الدنيا وبعثت في مشاعري كل ألوان الرجاء والحلم، وهيبة التي لم أبح بكل سيرتها لأحـــد غيره غيرتني وأعادتني للكفر مدندشا آخر، وأنا قلت لكم بعض ما كان من وهيبة، لكنني لـــم أقل لكم كل شيء، وقد لا أقول لكم كل شيء أبدا، يكفي أن تعرفوا أنها كانت وراء انفـــرادي بروحي كل هذا العمر دون زواج أو خلفة، من أجلها سرقت ولوثت كفوفي بدم البشر، وكانت هي السكين الذي سرق عمري، سكين مسنون النصل شديد النعومة إلى حد الذبح دون وجـــع كثير، ذبح الناعم كالحرير وأنعم، ذبح يبقى الرأس مكانه ولا يظهر أثر النصل فـــوق ثنيـــات العنق، هو نوع من الذبح المخصوص ذلك الذي جربته مع وهيبة، ووهيبة كانـــت أعرابيـــة، دخلت كفركم "السهران" تهز وسطها وتطلب الثمن فطالتني بعينيها الحويطتين المكحولتين تحت

جبينها الهلالي وصوتها مثل كروان يسبح في الفراغ بحمد الله على الصحة والجمال والستر، سرحت وراءها دون علمكم طبعا، لكنها كانت وراء هجرتي وعودتي، غيابي ورجوعي، وراءها درت في كل بلدان البر، الريف والحضر، بحري وقبلي، الجبلي والصحراوي، وهبتني وهيبة من حسنها أقل القليل لكنها أشبعتني وروتني، توهتني وأعادتني لأصلي، ولولا كلامها ما رجعت إلى كفركم "المسامح" أعيش وسطكم وأحصل على رزقي، ويبدو أنها حسبتها حسبة صحيحة لأنها كانت بارعة في الحساب، عرفت منتهى عزمي وأدركت أنني لا أقوى على الاستمرار معها وحولها وهي محط أنظار ناس تشبه الغيلان، رأتني مثل عود قصب معصور وممصوص خيره فأوحت لي بأن أرجع، وأنا مع البدوية كنت أطاوع دون مناقشة، كنت مثل خاتم في إصبعها، طيعا مثل قط رومي ووفيا مثل كلب أرمنت، رجعت وصدقت أنها سوف تتخلص من كل ما يعوقها عن الحياة معي وترجع إلى كفرنا "النعناعي" تعطيني بقية عمرها وتأخذ ما تبقى من عافيتي، قلت لكم إنني صدقت ورجعت، انتظرت وانتظرت، لكنها لم تأت قط، لا جاءت كفرنا أو أي كفر أو بلد في كل الناحية، من ناحيتي عملت بالوصية:

ــ إوعاك يا مدندش تبص لحد غيري.. إوعاك أرجع ألاقيك متجوز واحدة من بنات الفلاحين.. استناني، مهما طال الغياب استناني.. ح أرجع لك وأعيش وياك، وح أعوضك وأنسيك سنين الحرمان والغلب.

بذلك قالت البدوية، وأنا من ناحيتي صدقت الوعد، وقلت انتظر، وطال انتظاري ولم تظهر علامة الرجوع أبدا، لكنني لم أيأس، كنت أستعيد عينيها الحويطتين وأسألها عن موعد الرجوع فتهرب مني مثل جنية صغيرة، أسرح بالخيال في أعقابها ولا أطولها، لكنه يبقى في ركن القلب بعض الرجاء في أن ألتقي بها في العمر مرة، مرة واحدة، ظل حبل الرجاء ممدودا وموصولا بيني وبينها، سنوات وسنوات فاتت من عمري، خرج السعيد ابن نجاتي من حكم المؤبد بعد أن قضى ثلاثة أرباع المدة، وأنا لم يصدر حكمها بالعفو عني، قلت كل شيء لسيد أفندي، قلت كل شيء وكان يسمعني، يدعوني للاستمرار في الحكى، أراحني، خفف عني وضاحكني وأزاح عني وهم الانتظار بلا جدوى، أكد لي أنها ما دامت قد وعدتني فسوف تفي بالوعد، وحكى لي شيئا عن وعد الحر، وعد العربي الحر، كان الأفندي يحب العرب، كل العرب والأعراب والبدو المتنقل، وكان يحب عبد الناصر ويكره السادات، وكان يحلم مثلما أحلم بالأعرابية، يحلم بوحدة العرب ويحلم بالزمن العربي ويبثني أشواقه لذلك اليوم البعيد الذي تعود فيه وهيبة ويتوحد كل العرب، وكنت أشعر أنه مصاب بنوع نادر من أنواع الخبل، خبل العرب إن جاز لي أن أقول: كان يرى أنه من الحتمي أن يجيء اليوم الذي يتوحد فيه كل العرب، يتقابلون في واحدة من عواصم العرب، يتعانقون ويختارون قائدا أو زعيما يتولى

أمرهم في مسائل الحرب والسلام، العجيب العجيب أنه كان يتخيل هذا القائد أو الزعيم ويصفه لي فأرى وجه عبد الناصر الطالع وقد تألق بالشباب وازداد وعيا بدوره الكبير، ما علينا، ما لنا بعد الناصر الذي اختلفت معه في شأنه، ثم ما لنا بالسادات الذي أوشكنا أن نتفق في شأنه، ثم من أكون أنا ليكون لي رأي في المسائل السياسية وهي وظيفة الأفندية؟ ربما يكون سر تباعد ناس الكفر عنه هو هذا الاهتمام الزائد عن حاجتهم بالسياسة، اهتمامه هو طبعا الذي يزيد عن مقدرتهم على الانشغال، السياسة في كفرنا لقمة عيش وثوب ومسكن يريح النفر فيه جنبه ويقيه سخونة الحر في الصيف ورعشة البرد في الشتاء، السياسة في كفرنا شاي وسكر وزيت ودقيق وسمن وقرش جار في الجيوب وسداد ديون، ما لنا بالسياسة؟ وهل نفعتنا السياسة أبدا، راح الملك وصفقنا لمحمد نجيب، ذهب محمد نجيب وجاء عبد الناصر، صفقنا لعبد الناصر حتى أدمينا أكفنا من كثرة التصفيق وراح عبد الناصر فطلع لنا السادات، حكى لنا كل يوم حكاية شكل عن جدته وأخواته وناس كفره الأصغر من كفرنا وكأننا لم نذهب إليه أو نعاشر فيه ناس، هل أطعمنا السادات كما قال؟ وهل؟ وهل وهل؟ وما قيمة السياسة ومن يشتغلون بها إذا كان ما نتمناه لا نلقاه وما نحلم به لا يتحقق؟ الناس في كفرنا وكل الكفور المجاورة تموت بالمرض الناتج عن الإهمال والجوع أو تموت بالغدر مثل سيد أفندي، وهناك دائما ذلك المجهول المعلوم لنا، مجهول لهم هم يحرصون على تأكيد وجوده وكأنه من مصلحة البعض أن يظل البعض مجهولا للبعض رغم كونه معروفا للناس، أرزاق هي تتوزع في الخفاء والعلن لكن رائحتها تفوح حتى ولو كانت في البعيد البعيد، ربما لأننا ورثنا في خلايانا المقدرة على كشف الأسرار فصار كل شيء في حياتنا واضحا وظاهرا مثل شعاع الشمس وكل المطارات السرية والحسابات السرية وشروط المعاهدات السرية مثلما قال لي ذات مساء صاحبي الذي خطفه المجهول المعروف، سيد أفندي المغدور قال لي وصحاني من غفلتي، أو قل إنه أكد لي صدق ظنوني، كان بالنسبة لي مثل كتاب مفتوح وكنت بالنسبة له معروفا ومقروءا، فهل مت أنا في ذاكرته بينما مازال يحيا في ذاكرتي؟ وإذا كان ذلك كذلك فمن منا الذي مات؟ وإذا كانت ذاكرته التي انطفأت مثل سراج وهاج انتشر ضوؤه قبل أن تعصف به الريح الصرصر العاتية فانطفأنا وساد حولنا الظلام بينما هو باق، كأنما أخذنا نحن من منطقة النور إلى منطقة العتمة بعيدا عن أي ضوء أو شعاع فدعاني لأن أندب نفسي فيه وقد توحدت فيه زمنا لا يفصل بيننا فاصل، تصاحبنا وتساوينا وتبادلنا الكلام المفتوح بلا حواجز أو حدود، دعاني لأن أفتح مغاليق نفسي وأن أفسح للساني حرية البوح والقول بلا تردد أو مخافة، دفعني دفعا لأن أعلن خلافي معه ولا أكتمه. كنت أفعل أحيانا لكنه ليس دائما فلمن أبوح من بعد رحيله بسر المفاسد والأكاذيب؟ ولمن أشكو وقد شاخ القلب وشابت خلايا الدماغ من كثرة ما شفنا في عمرنا من مراوغات؟ مراوغات الكبار.

قبل أن أعرف سيد أفندي كنت أتفنن في سرقة الكتب لأقرأها، وكنت أصدق نفسي بأن من يملكون الكتب نادرا ما يلتفتون إليها أو يضيعون الوقت المناسب في القراءة، يقرأ الكتاب من لا يملكه، على الأقل يتمني قراءته، وفي الكثير من بيوت الأكابر كنت أرى صفوف الكتب وقد غطاها الرماد الدقيق بما يؤكد أنهم لم يقلبوا صفحاتها مرة، كنت أحتال وأسرق الكتب من أكابر هذا الزمان المقلوب إذن، أقول لروحي إنه حلال لأمثالي أن أعرف أي شيء آخر غير ما أعرف، بيني وبينكم تهت، الكتب متاهات ودهاليز ومسالك ملفوفة لكنها تدعوك لأن تتحسس السكة رغم السواد والعتمة، ما علينا، أخطر شيء، أخطر شيء في هذه الدنيا أن تتبدل، تتغير أفكارك عن الأشياء، باختيارك أحيانا ودون وعي في حالات أخرى، وما جرى لي بعد أن قابلت سيد أفندي هو شيء من هذا، سرقت منه كتابا، كنت قد أوصلته إلى دار صالح في ثالث زيارة أراه فيها، حملت عنه حقيبة وسألته:

ــ مالها ثقيلة كدة ولو أنها صغيرة.. معبيها زلط يا سي سيد؟

ــ أبدا.. فيها كتابين..

قلت لسيد أفندي بيني وبين نفسي "أنت الجاني على روحك" تحمل كتب أفندية البنادر إلى كفرنا "الفركوحي" وتظن روحك قادرا على الخروج بها وأنا موجود؟..

جاوبته على أسئلته في السكة من دحديرة الكوبري حتى دار صالح، ناولته الحقيبة عند الباب واستأذنت رغم دعوة أهل الدار لي بالدخول، وعدته بالمرور في الليل، وفي الليل نصبوا في المندرة سهراية شاركتهم فيها، وأنا خارج دفست الكتاب في عبي، كنت قد رأيته وأنا داخل فوق رخام الترابيزة المحطوطة أسفل دولاب الحائط في قاعة صالح، قبلها كنت قد امتلأت، حصلت على "ورك" ذكر بط محمر لزوم إكرام الضيف وضيفت الضيف، وفي داري أخرجت الكتاب وفي ضوء المصباح الخافت عرفت بيرم غير بيرم مؤلف أهل الهوى يا ليل، بيرم شاعر دمه خفيف عارف للناس وطباع الناس، سهرت الليل بطوله حتى قرأت آخر صفحة من الكتاب، أقول لكم حقيقة غابت عني، بيرم حببني في سيد أفندي، ربط بيني وبينه برباط خفي، شيء غريب لم يحدث لي من قبل، أن يحببني كتاب مسروق في صاحب الكتاب المسروق لكنه حدث، كان النهار الطالع يملأ وسط داري بشمس الله الدافئة، وعندما رحت أفتح الباب للطارق كان قد لمح الكتاب بنظرة خاطفة سارع بتفويتها، رحبت به وأنا مندهش أشد الاندهاش، دخل الدار ببساطة وجلس على الحصير الذي فرشته تحت شمس الضحى، قلب في الكتاب وسألني ببساطة:

ــ قريت فيه؟

ــ قريته كله يا سي سيد.. ده دنيا بحالها.

ــ غريبة..

كانت عندي تلقيمة شاي وعلية سكر كاملة، فشربنا الشاي واتفقنا أن آخذ منه الكتب لأقرأها وأعيدها إليه بعد القراءة، حدثته عن الكتب التي قرأتها وتلك التي سرقتها ولم أكملها فتخلصت منها بالبيع، وحدثته عن طعم الكتب المسروقة التي يقرؤها النفر ويخرج لسانه من بعيد لبعيد لأصحابها:

ــ أنا يا سيد أفندي لا دخلت مدارس ولا كتاب، بس اتحايلت واتعلمت، شغلت روحي بالحروف والكلام وقريت، ساعدني العيال الصغار ف الأول، وعاندت روحي لحد ما صار كل الكلام المكتوب مقري.. تصدق بإيه؟ لحد النهاردة ما عرفش أكتب اسمي، مكتوب عليك يا مدندش تقرأ وتقرأ وتعجز عن الكتابة، شفت واحد زيي كدة يا سيد أفندي، يقرا ما يكتبش..؟

ــ وشفت اللي بيكتب ولا يقراش..

ــ عجايب.. دي الدنيا على كدة مدورة بصحيح..

ــ مدورة فعلا يا عم حسنين.

كانت أصدق عم حسنين سمعتها في كل عمري، ومن ساعتها بدأت علاقتي معه تأخذ شكلها المخصوص.

طلب مني علام أن أفوت على داره، أشوف طلبات أهل الدار، ذهبت فوجدت الست أم شاكر مشغولة بتجهيز زيارة، أول ما شافتني وصفتني بأنني ابن حلال.. طلبت مني ان أرافق شاكر إلى شقة سيد أفندي في الحلمية الجديدة، دست في يدي ما قالت عنه أجرة السفر لي ولشاكر، وأشارت إلى سلة الزيارة، المشوار لا بأس به لكن زمالة الطريقة صعبة، وشاكر لسانه مقلوب وغلاط وأنا لم أعد أحتمل سخافات الصغار ولا أوامر الكبار. كان سيد أفندي يتراءى لي ويمنعني من الاعتذار عن المشوار. استعنت بالله وحملت السلة، طلبت من شاكر أن يلحقني عند السكة الزراعية لكنه زام وبرطم قبل أن نبدأ المشوار:

ــ مستكبر تمشي ورايا بالسبت يا مدندش؟

ــ اختشي عيب يا شاكر.

قالتها أمه قبل أن تلتفت إليّ لتطيب خاطري وتزيح ترددي وقد وقفت عند الباب مبديا عدم ارتياحي لكلام الولد: عيل.

ــ معلهش يا مدندش، عيل وما يدركش، عشان خاطر سيد. أنت مش عاوز تشوفه ولا إيه؟..

من أجل سيد احتملت شاكر حتى وصلنا إلى شقة سيد أفندي، كان في الشقة مجموعة من الشباب في مثل عمره، هللوا وهم يتشممون محتويات السلة، يتضاحكون وهو واقف مكانه يرحب بنا بينما هم جاهزون للترحيب بمحتويات السلة، كانت زيارة عمرها قصير، زيارة بنت ساعة زمن بفضل الأسنان المسنونة للأفواه النهمة، لكنها كانت أكلة فطير وأرز مدسوس

ودجاج محمر تشبع، شبعوا وشبعنا ثم تسللوا مغادرين وتركونا، أنا وسيد أفندي مع شاكر، كان شاكر يبدي غضبه من أصحاب سيد أفندي الذين بدوا له متطفلين لا يخجلون، وكان سيد أفندي يدافع عنهم يقول إنهم أصحاب عمره وأنهم لولا الحب ما فعلوا ذلك الذي فعلوه، كنت مشغولا بالكتب فوق رفوف المكتبة بطول الجدار، كتب كثيرة تصلح للسرقة لكنها تحتاج إلى جرار بمقطورة، تناولت كتابا لأقرأه فوجدت شاكر يسألني:

ــ أنت جاي تقرا هنا؟ قوم وديني عند بنت عمتي.

كأنني كنت عبده الذي اشتراه علام، كدت أغلط وأفرد لساني لولا سيد أفندي الذي تدخل في الوقت المناسب، هدأ شاكر ووعده بأن يوصله بنفسه إلى أي مكان، في الليل جاءوا، نفس المجموعة ومعهم شيخ ضرير يحمل عودا ملفوفا في ثوب قديم.. وبسرعة أخرجه وجلس يدندن ويختبر الأوتار.. غنى لنا الشيخ أغنيات جديدة لم نسمع بها أبدا، أغنيات عن الحرب والسلام والجرح الذي ينزف الدم ويجرح الكبرياء.. وكانوا يرددون وراء الكفيف أغنياته بحماس، أنا نفسي حفظت بعض الكلام بسرعة وجعلت أردد مثلهم أغنيات الشيخ الضرير المعاند ضد الحكومة والحكام، وبيني وبين نفسي شعرت بالفرح، ها هو بعض ما نرغب في البوح به يقال ويتغنى به أولاد المدن بينما لا نسمع غير نشرة الأخبار وبرامج تنظيم الأسرة والمسلسلات البلهاء، وكان الليل قد انتصف من ساعتين أو أكثر عندما فكروا في الرحيل، تركونا بعد أن أشعلوا في الذاكرة ما كنت أحسبنا نسيناه ونساه كل الناس.

كانت شقة الحلمية كشفا جديدا، فيها تعرفت على أفندية مثل سيد أفندي، أساتذة وشعراء وأولاد ليل حزانى من أجل البلد، عرفت فيها أن ما يملكه الواحد منهم هو ملك للآخر في ذات الوقت، يتبادلون السجائر والقروش وبعض الثياب، يتحاورون ويتجادلون حتى صباح اليوم التالي، يبحثون عن الحل المستحيل وليست في متناول أياديهم أدوات الحل، كنا في تلك الأيام نعيش الذكرى الثالثة لهزيمة جيشنا في سيناء، جيشنا المحروس هزمته جيوش الأعداء، وكان على الناس أن تصير جيشا لكنه كان مستحيلا، وكانوا يشعرون أحيانا بالغضب واليأس، لكنهم أيضا لم يفقدوا كل الأمل، كانت مجرد أيام تلك التي عايشتهم خلالها لكنها كانت كافية لأن أعرفهم ويعرفونني، أصير صاحبهم ويصبحون أصحابي، يستعيرون الكتب من سيد أفندي ويحملون إليه الكتب التي لا يملكها ويرغب في قراءتها، ها هي الكتب في متناول اليد لكنها لا تدعوك للتفكير في سرقتها يا مدندش ربما لأنها لا تستقر في المكان، تتحرك، تتناقلها الأيدي وتطالعها العيون الجسورة الباحثة بين سطورها عن الحل الكبير لهمنا الكبير بعد الانكسار، الكتب لمن يقرؤها والسجائر لمن يدخنها والقروش لمن يقترضها والخبز القليل لكل الأفواه، دنيا غريبة لم أعتدها أبدا، لكنها جديرة بالتأمل والتفكير فيها، وسيد أفندي مجرد واحد في وسط ناس تقول كلاما غاضبا عن الحرب والهزيمة، تتجادل في ترتيب المسئولين وتتفق في

العداء لصهاينة اليهود والأمريكان، كلام مثل كلام الراديو وكلام عبد الناصر لكن بشكل مختلف لأنه يدين الكل، الحكومة وعبد الناصر والاستعمار والأغنياء في كل أطراف الدنيا.

كانت زياراتي لشقة الحلمية قد أصبحت عادة، كلما زهقت من صندوق الدنيا أذهب إلى هناك، أجالسهم وأشاركهم كل شيء السهر والكلام والغضب وبعض الفرح والتنكيت على الكبار، يسألونني الرأي ويدفعونني لأن أقول فأقول، يهلل فاروق أفندي.

ــ سامعين الكلام يا أفندية يا بتوع المدارس.. الأمل في الشعب.

ــ المسألة مش بالبساطة دي يا فاروق.

ــ لأ.. هي بالبساطة دي، لازم تنزلوا للناس، تسمعوا الناس، تتعلموا منهم، قول لنا موال يا عم حسين.

كنت أستجيب لفاروق أفندي أكثر مما أستجيب لأي واحد منهم، أشعر أنه يرتاح لوجودي وكلامي وصمتي، كأنه مسئول عني وعن تفجير مشاعري، أقول موالا فيهلل، تتداعى في ذاكرتي مواويل الهم المدفون في الأحشاء فأنطق بها، أنسى روحي حتى اكتشف بدايات انشغالهم عني، أسكت في الوقت المناسب أو أنسحب خارجا من المكان مدعيا حاجتي إلى الرقاد، أسمعهم يتحاورون وأسمع باب الشقة وهو ينفتح ليدخل صاحب جديد أو يخرج صاحب طالت قعدته، وكثيرا ما كان الصبح يطلع وهم على نفس الحال، ليلهم نهار ونهارهم ليل وأنا رغم السن مأخوذ بهم ومعهم، كأنهم بهية العربية التي جرجرتني وراءها وسحرتني وجعلتني على الرغم مني مستعدا للسرقة والقتل لأرضيها، لكن بهية رغم كل فسادها لم تكن تشعر بقلقهم وإحساسهم الدائم بالمطاردة، كانوا يتحدثون عن المباحث وأمن الدولة والمخابرات العامة التي لا بد أنها تراقبهم والتي ربما تزرع في وسطهم جاسوسا أو أكثر بهدف نقل أخبارهم، ولم أكن أنشغل بمثل هذا الكلام حتى سمعت فاروق أفندي الذي كنت أحبه يسأل سيد أفندي هامسا بينما كنت أرقد في الحجرة المجاورة:

ــ أنت متأكد منه؟

ــ عادي.. دا راجل غلبان.

ــ المصيبة أنهم ما بيشغلوش إلا الناس الغلبانة.

ــ معقول..؟ دي تبقى مصيبة.

ــ إحنا اتحمسنا له أكثر من اللازم.. لازم نحتاط منه..

ــ وطي صوتك ليسمع.

كنت قد سمعت، وبخت نفسي بنفسي على التردد عليهم والإقامة المتواصلة بينهم، لا هم من سني ولا مركزي يناسب مراكزهم، وأنا رغم كل شيء مجرد طبال ونداب ومنادي وحافظ كلام فارغ أضحك به على العيال وهم ينظرون من العدسات إلى الرسوم التي تظهر

لهم في صندوق الدنيا، ما لي بالأفندية أصحاب الرأي من الشعراء والسياسيين ومن يكتبون للإذاعة والصحف ويغنون كلاما ساخنا عن الأحوال؟

كنت قد قررت أن أبتعد لكنني ابتعدت ببطء، انتظرت عدة أيام بعد ان سمعت ما سمعت حرصت خلالها على قلة المشاركة في جلساتهم، أدعي قضاء مصلحة لي في الحسين أو السيدة وأظل ألف وأدور حول الأماكن وحول نفسي حتى يهدني التعب وأرجع، أعتذر لهم وأرقد في أي مكان، أرى نظرات الدهشة في عيونهم ولا أقدر على تفسير ابتعادي رغم ما قاله فاروق أفندي مرة:

ــ أنت بتغطس تروح فين يا عم حسنين؟

ــ بزور أهل الله يا سي فاروق أفندي والمعارف.

ــ أهل الله؟ كويس أن لك معارف مش بقولكم؟

قال عبارته الأخيرة وهو يجول بنظراته في كل الوجوه، كدت أبكي وأنا وحدي في تلك الليلة، لكنني في الصبح كنت راكبا أول قطار في سكتي للكفر وكأنني مطرود من جنة الدنيا إلى جحيمها، يسألني أهل الكفر عن مصر وناس مصر فلا أمد حبل الكلام على غير عادتي معهم، كنت أحاسب نفسي وأحذرها من أن تطلع مني كلمة زائدة عن سيد أفندي وأصحابه، وما دمت أنا قد تعرضت لمخاوفهم مني وشكوكهم في أمري فلا أمان لأحد، هكذا منعت نفسي من مشاوير السفر وجاهدت لأنسى شقة الحلمية وناسها وكلامهم. وبدا لي أن الأمر لم يعد يشغل أي واحد من ناس الكفر حتى كان ذلك المساء الذي استدعاني فيه عمدة الكفر وسألني:

ــ إيه حكاية شقة الحلمية اللي كنت لابد فيها يا مدندش؟

ــ مفيش يا حضرة العمدة.

ــ لأ فيه.. أنت فاكرني نايم على ودانى؟ أنا جاياني إشارة م المديرية بتسأل عن سيد عوف، أصله وفصله وأهله وناسه وأصحابه..

ــ ونا يخصني إيه بس ف كدة يا حضرة العمدة.. أنا كنت باشيل له الحاجات اللي الست والدته بتبعتها له أو اللي سي صالح بيشيلهالي، موصلاتي يعني.

ــ بقى ما تعرفش أنه كافر وشيوعي يا مدندش..؟

ــ شيوعي..؟ يعني إيه يا حضرة العمدة؟ وكافر كمان؟

ــ أيوه يا خويا.. ومقبوض عليه من شهرين، أنا لولا باقي عليك كنت حطيت اسمك وسط الأسامي.

ــ أسامي مين يا حضرة العمدة يستر عرضك..؟

ـــ اللي ح تروح ورا الشمس، هما فاكرين الحكومة نايمة على ودانها؟ الكـــلام ده إن دار في دماغك يبقى يحش أجلك، روحك ف إيدي م النهاردة، اقدر أرميك في سفا العفاريـــت وأقدر أداريك وأداري عليك لو طاوعتني.

ـــ أنا خدام التراب اللي حضرتك بتدوس عليه يا عمدة.

ـــ فز قوم بقى، على دارك عدل تلزمها لحد ما أبعث لك إنما قوللي الأول.. لما كنت بتروح هناك يا وله.. كنت بتشوف إيه.. بتشوف مين؟ وكانوا بيقولوا إيه.

ح أقول لحضرتك كل حاجة.. بس اعفيني دلوقت، أعمل شارب زيت خروع وحاسس أني مكتوم.

ـــ خطي أطلع بره جاتك القرف اللي يقرفك، وأنا أقول الريحة النتنة دي كلهـــا جايـــة منين.

أسرعت بالخروج هربا ورهبة قاصدا داري، الغريب الغريب أنني في المســـافة بـــين الدوار وداري كنت أشعر بثقل شديد وليونة في الطبيعة تصل إلى حد العجز عن احتمالهـــا أو الإسراع بخطواتي إلى داري لأدخل بيت الراحة وأرتاح قبل أن ينفلت عيـــاري فـــي وضـــح النهار.

في كفرنا "النوري" تعيش "البهاليل" أمثالي على طاعة الحكام، بإشارة من أصغر خفير أو شيخ خفراء ينقلب ميزان الدنيا من الأبيض المزهزه إلى الأسود "الغطيس" ومهما قلت لـــي عن وسع الدنيا ورزقها المقسوم للبني آدم يناله هنا أو هناك، مهما قلتم لـــي عـــن إمكانيـــات الخروج والسعي فلن تتغير فكرتي بأن الدنيا هي حدود كفرنا "الشرشابي" وأنا أعـــرف أننـــي مقطوع فيه، لا سند لي من أهل معمول حسابهم أو أرض ملك فـــي الزمـــام تتطلـــب البقـــاء والرعاية أو حتى رزق مضمون أو ضمان، لا شيء، لا شيء من كل هذا يملكه البهلول الذي هو أنا ولا يفكر في الرحيل، وحتى إذا رحل فعلى موعد متعجل للرجوع، وأنا خرجـــت مـــن كفركم يا ناس وغبت، غبت وغبت ورجعت لأنني كنت على ذمة الكفر مثل امرأة مكســـورة الجناح في عصمة رجل جبار ومفتري وقادر لا تملك مثل هذه المرأة الجرأة على الفرار مـــن دارها إلى أي دار، وإذا خرجت من بابها بدون رضاه أعادها ذليلة على بيت الطاعـــة بحكـــم الشرع وبحكم القوة والقانون، كفركم "البهلولي" يا سادة هو سكني وموطني وميراثـــي وبيـــت طاعتي من قديم الأزل وحتى نهاية الأجل، وأنا لا أقول لكم ذلك بسبب خـــوفي مـــن فكـــرة الخروج وكأنني قرموط سمك طالع من بطن الترعة ومرمي على شطها يتلوى فـــي ســـخونة شمس "بئونة" الحجر، قرموط سمك يقاوم الموت بنفسه الطويل أكثر من كل الأســـماك التـــي عرفناها، يطول الوقت أو يقصر لكن عمره مرهون بعودته إلى بطن الترعة، من هذه الناحية اعتبر نفسي قرموطا من سمك ساكن في قاع الترعة وقد جرب الشط وتاب عـــن الخـــروج،

صحيح أن الرزق في القاع شحيح والعطن والعفن أكثر لكن ما هو البديل؟ الخروج للبهلول القرموط موت محتوم وفناء، يقول بعض الأكابر إنني كنت في صباي وشبابي خفيف الحركة والدم واليد والعقل واللسان وأنا لا أعترض، لكن خفة الحركة والدم واليد والعقل واللسان ضد الرحيل، صدقوني، أنا رحلت وجربت، حملت صندوق الدنيا وسرحت في البنادر البعيدة وكانت الدنيا براحا مفتوحا بلا حدود، لعبت مع ناس البنادر مثلما يلعب القط مع الفأر، شاغلتهم وشاغلوني، شغلوني في كل شيء من بواب إلى فران إلى صبي جزمجي أو قهوجي أو عتال نصف عطلان أو أشغال أخرى قمت بها برضاي أو غصبا عني لأدفع عن روحي تهمة العجز أو عدم القدرة على الاحتمال، لكن أي نوع من الاحتمال يا ناس؟ هل تنبت الحبة الصالحة في أرض غير أرضها؟ أنا عرفت مثلا أن ثمار البلاد الباردة لا تطيب في البلاد الساخنة، وزرع الصحاري غير زرع الجبال، وأنتم أهل الزارعة من قديم الزمان، هل جربتم مرة أن تغرسوا حبات القمح في طين الأرض أيام الحصاد؟ لا بد أنكم جربتم أو أن أجدادكم جربوا وتأكدوا بأنه لا يطيب الحب والثمر إلا في أوانه وأرضه، ومن هذه الناحية أيضا أراني مثل بذرة أو حبة مدفوسة في طين الكفر خروجها موت وفناء، طيب إذا كان الأمر على هذا النحو فكيف لا أستمر في الحياة وكل ما أرجوه لقمة تسد الجوع وهدمة تستر البدن بينما تتكفل جدران الدار بحمايتي من الشرد وعواصف الريح ووحل الأمطار؟

نرجع في الكلام إلى عمدة كفرنا "النوري" وما طلبه مني بسيط وسهل من ناحية وصعب مستحيل من ناحية أخرى، يتوقف الأمر على فكرة البني آدم عن نفسه وفكرته على الآخرين، يمكنني مثلا أن أكذب من كثرة الخوف أو احتيالا للحصول على وجبة دسمة تسند قلبي، كذبي في هذه الحالات مفهوم ومكشوف واضح وضوح الصدق، ويمكنني أن أساير أي واحد من أهل الكفر في كلامه عن غيره، كل واحد في نفسه سلطان ويحق له أن يرى نفسه أفضل أو أقوى أو أضعف أو أذكى أو حتى أغنى من غيره أو أفقر، وعندما أسمع فلا بد أن أساير وأدعم وأشجع وأهدي، وأحيانا أضع على شعلة النار مزيدا من "السبرتو" أشعلها نارا حامية وأنا عارف حدودها ومداها وإمكانيات ضررها، في أوقات أخرى أعترض وأقوم بدور عسكري المطافئ حامل الخرطوم الكبير الطويل والماء يندفع بشدة لتخمد النيران في أقصر وقت، أقوم بذلك أحيانا، كل وقت وله أذان كما يقولون، وكل إناء ينضح بما فيه كما يؤكد الشيخ رجب خريج الأزهر المعجباني ملفوف شال عمته الحرير الأبيض بطريقته الخاصة جدا والتي حاول العشرات وربما المئات تقليدها دون نجاح، ظلت عمامته في الكفر وكل الكفور المجاورة وربما البنادر ملفوفة بشالها الحرير الأبيض على نحو مختلف ومخصوص وصعب تقليده أو حتى وصفه، والناس كلها سلمت للشيخ رجب بحق الاختلاف والانفراد بهذه العمامة حتى صارت علامة مسجلة يضعها فوق الكرسي فيعرف الناس أن الشيخ رجب موجود في

المكان، يظهر لهم فيتبادلون معه الضحك لأنهم عرفوا وجوده عندما وجدوا عمامته، العمامة والشيخ رجب شيئان لا ينفصلان، توأمان وعلامتان من علامات كفرنا "البرقوقي" الذي يحرص كل نفر فيه على أن تكون له علامة أو سيرة وصفة، فاسمحوا لي بأن أظل كما كنت بينكم بصفات مختلفة تدعو إلى الضحك والسخرية أحيانا وتثير العطف والشفقة في بعض الأحيان، هذا من ناحيتكم أنتم، أما من ناحيتي أنا فالأمر يختلف لأنني ببساطة إنسان مختلف وجد نفسه بينكم وتعلق بهواكم على طريقته، تزعجه الأحداث فلا ينزاح وتطرده الإدارة فيحتال ليبقى، وكل ما هو مطلوب من البلهول أن يعرف متى وكيف يميل ناحية الاتجاه المضبوط في الوقت المناسب، هي لعبة مثل المشي على السراط، شغل بهلوانات وبهاليل وأرجوزات في هامش الهامش على ما يظهر للإدارة وهم في قلب القلب من نبض الحياة في كفرنا وكل الكفور المجاورة يا ناس.

أحكي لكم إذن عن ضرورة الطاعة، طاعة المتخاصمين، لنفرض أن بهلولا مثلي تقابل مع عمدة الكفر مرة وسمع منه مثل ما سمعت من عمدة كفرنا حول ما كنت أسمعه أو أراه في زياراتي لسيد أفندي عوف وقد وعدني وتوعدني في نفس الوقت، بيني وبينكم شعرت ساعتها بالرهبة، كنت أظن أنه ليس هناك غير واحد من اختيارين لا ثالث لهما، أن أبوح بما قد يضر من فتح لي بيته وقلبه فأفوز برعاية العمدة وأنا في الواقع أخون عيش صاحبي وملحه،كلامي عنه لحضرة العمدة من أولاد شلبي معناه أنني سوف أسلمه سلاحا قادرا على الطعن في ظهر واحد من أولاد الخصوم، واحد ممسوك في قبضة الحكومة لأسباب لا أعرفها ولا يعرفها عمدة كفرنا نفسه، عمدة كفرنا كان يتودد للمركز وعساكر المركز، يتحدث عن المأمور وكأنه ملاك نازل من السماء أو نبي مرسل وكان عمدة كفرنا كذابا يا ناس وكل ما يهمه هو البقاء في مركزه لا مانع عنده من رشوة المخبرين والعساكر وصغار الموظفين في الشهر العقاري وتحقيق الشخصية وتفتيش الري والزراعة والصحة وكل من يظن هو أن له علاقة بالمأمور أو أعوانه، وأنا أعرف كما تعرفون أن عمادة الكفر لم تنتقل من أولاد عوف إلى أولاد شلبي ببساطة ويسر، كانت وراء المسألة مصاعب ومشاحنات وثأرات ودماء مهدرة، كان الأمر عسيرا بحق، فيه سعي متواصل من ناحية وكسل متراخ بليد من الناحية الأخرى، وقد فكرت في أن أجرؤ وأذهب بنفسي إلى حضرة المأمور أحدثه عن أفكاري ومخاوفي من إمكانيات أن أتعرض للخطر إذا أبديت أي نوع من الاعتراض على أن أتحول إلى نمام في موضوع لا أعرف قيمته أو أهميته لأنني ببساطة لا أعرف أي شيء في السياسة أو بحورها الغويطة، لكنني تراجعت لأنني قلت لروحي "كل مأمور فوق منه مأمور أكبر فلأي المأمورين تلجأ؟" وقلت لروحي أيضا "لا بد من وجود الحل الثالث" على وزن العالم الثالث الذي يحكي لنا عنه الراديو والتليفزيون في نشرات الأخبار، وأنا وصلت للحل الثالث عن

طريق الست شوق، قلت لروحي: شوق بنت عم حضرة جناب العمدة وهي في نفس الوقت أم سيد أفندي، ومهما طال ابتعاده عنها أو قل اقترابه منها فهو قطعة منها، بينها وبينه حبل سري ممتد على امتداد العمر كله، وفي ساعات الخطر تحمي الأمهات أبناءها بالأنياب والأظافر، هكذا علمتني الحياة.

في المندرة كنت وحدي مع الست شوق أحدثها عن كل ما دار بيني وبين حضرة جناب العمدة، أذكرها بما كان من أمر ذهابي إلى سيد أفندي بأمرها ولأجل خاطرها، وأنه لو أصابني ضرر أو أصاب ابنها مكروه من ناحية حضرة العمدة فسوف تكون هي السبب ولو بشكل غير مباشر.

ــ والحكاية يا ست شوق ف إيدك وإيد ابن عمك، واللي أعرفه أن الضوفر ما بيطلعش من اللحم، وأن طلع يبقى بالدم.

كانت مثل قطة أصابها سعار أو وحش جريح محبوس في قفص حديد، عيناها زائغتان تبحثان عن سكة للحل، والحدقتان تتسعان وتضيقان وشرايين البياض تزداد حمرة فتلونه بلون الدم القاني، شعرت بالخوف منها أو عليها وندمت لأنني فاتحتها في الأمر، كنت حائرا إن كانت قد عرفت ما جرى لسيد أفندي قبل أن أعرف أو أنها فوجئت بأخبار حبسه مع أصحابه، كل ما فعلته أنها قامت، مدت يدها لتأخذ "الملس" وتتغطى به، تنظر ناحيتي وكأنها اكتشفت وجودي في المكان، تشير بسبابتها وتحذرني وكأنها في نفس الوقت تصرفني:

ــ اللي قلته يا مدندش ما يتحكيش لحد، بأجلك لو فتحت حنكك.

وببطء تسحبت من المكان خارجا وقد عاهدتها بهزة من رأسي تعني الموافقة، وفي سكتي للدار وقد خرجت من دارها بدا لي أنني سمعت خطواتها المتعجلة في اتجاه دوار العمدة، ذلك أنني لم أجرؤ على الالتفات خلفي وقد كانت السماء ملبدة بالغيوم وسحابة كبيرة سوداء تداري ضوء القمر وتعتم السكة وتبعث في القلب المخاوف.

في الكفر قالوا إنهم سمعوا صوت العمدة مجلجلا في منتصف الليل الساكت، يتعارك مع أهل بيته ربما ويردد نفس العبارة التي يقولها في كل الحالات الصعبة لتبرير ما لا يعجب الخلق من أفعاله:

ــ أنا ما لي.. أنا عبد المأمور.. بقولك عبد المأمور..

وربما لم يفسر الناس كلام العمدة أو يعرفوا على من كان يتوجه بالكلام بنفس طريقتي في التفسير، وربما كنت قد أخطأت التقدير أو أخطأوا لكنني على نحو غامض شعرت بنوع من الارتياح وإن لم أتخلص من أوجاع بطني أو ليونة الطبيعة عندي، أو من ذلك الانتفاخ الذي أصابني وفجر من الفتحتين رياح البطن تنطلق رغم الإرادة وتنشر في المكان رائحة العفونة الخانقة.

مات عبد الناصر فبكيناه، بكاه الصغار والكبار، لكن رجالا من ناس الكفر لم تنشغل بالأمر أكثر من عدة أيام، وفكرت أنه لا يخصهم في شيء من يتولى حكم البلاد، ما يخصهم هو الضيق أو الفرج، سهولة الحياة أو مصاعبها، لكنني كنت مخطئا، ذلك أنهم رغم ما يبدو في الظاهر ينشغلون، لكنه انشغال من لا يشارك إلا في أيام الاستقتاء، يذهبون بتثاقل مخافة أن يدفعوا الغرامات إذا تخلفوا، يؤشرون في خانة الموافقة رغم الاعتراض، أو هكذا يؤكد البعض منهم للبعض الآخر:

ـ مش وافقت برضه؟

ـ وافقت.. ما هو وافقت ولا ما وافقتش ح ينجح، هو فيه غيره؟ خليها على الله.

ـ واللي ما راحش العمدة سدد قصاد اسمه الله يستره.. يعني ما فيش غرامات النوبة دي..

ـ العمدة بيقول أنه قريب السادات.

ـ قريبه من أنهى ناحيه؟

ـ أهو كلام.

ـ بس الراجل ده باين عليه نبله.

ـ العمدة ولا السادات؟

ـ الاثنين يا أخي.. مش بتقول إنهم قرايب؟

يقولون ويضحكون، يضحكون وكأن الأمر لا يشغل بالهم في قليل أو كثير، الناس في كفرنا مثل الآبار الغويطة يصعب الوصول إلى قرارها، ولا بد أنهم يختلفون عن ناس البنادر، ناس البنادر يطلقون النكات ويقولون الرأي أحيانا دون لف أو دوران وكأنهم يستندون على جدران صلبة تحميهم، أنا شفت وسمعت في شقة سيد أفندي كلاما يوصل لأبواب الليمان، كانوا يتبادلونه بجرأة وجسارة في وجود من يعرفونهم لأول مرة، كانوا يقولون عن عبد الناصر ما قاله مالك في الخمر على مسمع مني وبلا حذر، صحيح أن فاروق أفندي حذرهم مني لكنهم لم يخففوا من كلامهم أو يتبدل رأيهم، وصحيح أنهم أخذوهم وحبسوهم بحسب رواية العمدة التي لم أتشكك في صدقها هذه المرة رغم شكوكي في الكثير الكثير من أقواله، كانت الشواهد كلها تؤكد أنهم أخذوه وحبسوه مع كل أصحابه، ما كان يدهشني أنهم كانوا يتكلمون بنفس الطريقة التي يتكلم بها الراديو والتليفزيون في نشرات الأخبار، صحيح أنه كانت هناك بعض الفروق لكنها فروق بسيطة، وليس من الممكن أن يتكلم كل الناس مثلما يتكلمون في نشرات الأخبار طبعا، كان سيد وأصحابه يتكلمون عن الاشتراكية والحل الاشتراكي والرأسمالية العالمية وتذويب الفوارق وبيان 30 مارس وإزالة آثار العدوان والأمم المتحدة والاتحاد الاشتراكي والوحدة العربية والتصنيع والسد العالي وتأميم القناة، وكل هذا

الكلام سمعناه بآذاننا، فكيف سمح عبد الناصر لعساكره وضباطه بحبس هؤلاء الذين كانوا في الواقع يرددون أفكاره وكلام إذاعاته؟ كنت أسأل نفسي وأنا الواثق من أن سيد أفندي كان من أشد المتحمسين لعبد الناصر ومن كلامه ما زلت أذكر بعض العبارات:

ـ كفاية يا مدندش إنه أول مصري يحكمنا من آلاف السنين.

ـ عبد الناصر زعيم بيحب بلده.. بس يا خسارة.

ـ رفع رأسنا في كل بلاد الدنيا.

ـ عاوز يعمل وحدة عربية ويحرر الشعوب.

وكلام غير هذا كثير سمعته بأذني ووافقته عليه، لكنه انحبس في زمن عبد الناصر وخرج في زمن السادات، في أوائل زمن السادات، رأيته وهو ينزل من باب السيارة وبدا لي أن حركته كانت أبطأ وأن وزنه كان أزيد، اقتربت منه بلهفة لأساعده وأحمل عنه الحقيبة، ابتسم لي وهمس:

ـ ازيك يا عم حسين؟

ـ الله يسترك، حمد الله على سلامتك، بقى هي مصر واخداك مننا على طول كدة يا سي سيد؟ هي البلد دي ما لهاش فيك نصيب؟.. دانت واحشنا خالص، طيب تآمن بإيه، كنت ح آجي أزورك في شقتك الجديدة، أيوه، ما أنا عارف العنوان.. بس بعيد عنك رجليا تعبت م اللف والدوران.. زرجنت يعني، وأهو زي ما أنت شايف كدة حطيت مرة واحدة.

كان يسمع كلامي ويبدو هادئا وكنت حريصا على أن أسمع كل من يرانا صوتي، كنت أرغب في إعلان وجوده دون أي إشارة إلى أسباب غيابه التي أعرفها وربما لا يعرفونها، وكان هو قد أحاط نفسه بالصمت الكامل فلم أفرغ كل ما كان مخزونا في قلبي وعقلي وعلى أطراف لساني من أحاسيس ومشاعر وأسئلة، وبدا لي وأنا أسير إلى جواره عند شاطئ الترعة أنه تباطأ في نفس المكان الذي أخرجته طفلا موشكا على الغرق في مائه، تذكرته طفلا ولا بد أنه تذكر لأنه كان ينظر ناحيتي متأملا وكأنما يتأكد أنني هو نفس الشخص الذي كانت نجاته من الموت على يديه، لكنه لم يتكلم، وزنت بالقرب من أذني ذبابة ملحاحة فتذكرت ما قاله فاروق أفندي في آخر مرة زرته فيها، وخفت أن يكون قد ظن هو الآخر أنني غير أمين على الأسرار، غطاني عرق مباغت لا علاقة له بشمس الظهيرة الطالعة، وعلى غير إرادة مني سألته:

ـ على أنهي ناحية يا سي سيد؟

ـ الوالدة.

فرحت، أحسست أنني سوف أوصله لها وقد عاد بعد طول غياب كابدت فيه الخوف والقلق، وأنها لا بد سوف تتذاكر تلك الليلة التي حدثتها فيها في أمره وما كان عمدة الكفر قد

قاله عنه وكيف حافظت على السر مكتوما لم أبح به حتى لنفسي في وحدتي بين الجدران، لكن ما حدث خيب رجائي فعند الباب كان هناك علام يتناول مني الحقيبة ويرحب بسيد أفندي ويكاد يسد فراغ الباب الموارب ليمنعني من الدخول، بل إنه قال بجفاء وغلظة:

ــ كتر خيرك يا مدندش.. ابقي عدي علي بعد المغرب في الدكان، عاوزك..

كأنه ألقى على جردل ماء سكن بين ثيابي وجلد بدني، رجعت من حيث أتيت وقد جف حلقي وزاغت نظراتي وانطفأ في القلب شعاع الفرحة وكدت أتعثر في خطواتي بينما تنبح كلاب الواطية على غير عادتها وكأنني غريب ترتاب الكلاب في أغراضه وتوشك أن تمنعه من العبور.

في الليل الساكت كنت وحدي، مقهورا وعاجزا عن احتمال وحدتي في الدار أو القدرة على الخروج بحثا عن سهراية في أي ركن من أركان الكفر، شيء يشبه الحبس الذي سمعت عنه ولم أجربه، والحبس ليس مجرد جدران وحارس يمنعك من الخروج والدخول بحريتك، الحبس أنواع، وأقساها ذلك النوع من الشعور بضيق الدنيا من حول النفر منا، ذلك الضيق الذي يسك كل السكك في الوجه وينفي وجود الأماكن رغم وجودها وكثرتها، شيء مثل الشلل والسواد وكراهية الوجود نفسه، إنه حبس بغير حراسة ولا جدران، ليلتها كنت أدور حول نفسي في دائرة صغيرة صغيرة، كأنني كنت نحلة تدور في نفس المكان، يتوه عقلي الدوران في المكان وامتداد الزمان، شيء يشبه الكوابيس التي تصيب المكبوس فتكتم أنفاسه وتمنعه من الصراخ أو الحركة، يتوقف الأمر على قدرة المكبوس على تحريك طرف أو إخراج صوت، علام كان في تلك الليلة كابوسي الذي يحاصرني في مكاني ويحبسني في بدني، يجعلني أدور على كعبي ولا أملك القدرة على الخروج من مداري، لكنه كان كابوس الصحو الذي يختلف عن كابوس الرقاد، لعله شدني لأن أستعيد كل ما جرى لي في كل عمري، كيف دوختني الدنيا وحرمتني من القدرة على الرد، كيف سلبتني كل الحقوق ووضعتني في خانة الضعفاء والمحصورين، وعلى أي أساس أخذت مني وأعطت لمن هم أقل وعيا وإحساسا بالناس وتصاريف الأحوال؟

مطرود أنا من كل مكان وإن كنت موجودا في كل الأماكن، لا حساب لي رغم ما يبدو لي في لحظات الانبساط أنني محسوب ومرغوب ومطلوب، لكنه في اللحظات الحاسمة أراني في هامش الهامش أكابد السكوت رغم امتلاء القلب برغبة الصراخ وقدرة اللسان على البوح والشرح والكلام، كأنني مقطوع اللسان بالفقر والعوز وعدم الاستناد الحقيقي إلى شيء أو أحد، وحدتي بعد كل هذا الزمان من السعي قاسية، ربما يصيبني مرض فلا أجد من يرعاني أو يحوطني بالعطف أو الاهتمام، لا زوج ولا أولاد ولا مال وعزوة، لكنني أيضا

وفي نفس الوقت أكره السكوت، كأنني مسئول من غير تكليف بأن أتكلم في كل شأن من شئون كفرنا الغفلان.

كنت أراني طائرا في منعطفات الكفر وأركانه والظلام يحيطني، ولم أكن أملك أجنحة الطيور لأرتفع إلى أعلى البيوت في مساحات الفراغ، كنت فقط أشعر بأنني أخطو في الخطوة الواحدة مساحات ومساحات، أدفع بأطراف أصابع القدم أرضية صلبة فأرتفع إلى ما فوق الأرض ذراعا أو باعا، مفتوح الساقين وشاعرا بمخاطر السقوط دون سقوط، وعندما أهبط وألامس الأرض أدفعها بأطراف أصابع القدم الأخرى فأعاود الارتفاع لكنني أستشعر الخطر من إمكانيات الاصطدام بأي جدار أو باب مسكوك، معلق أنا ولا حيلة لي أو قدرة على التحليق عاليا للخلاص من كل السواد وكل العتمة أو حتى الوقوف في المكان، وكنت أقول لنفسي إنني أحلم فقد عزت الأحلام، ولعلها كانت هي الريح التي حركتني وهزهزتني وأعادتني إلى حالة الصحو لا أعرف أنها كانت مجرد تغفيلة أفقت منها في نفس اللحظة التي سمعت فيها صوت الشيخ رجب وهو يؤذن لصلاة الفجر وينادي بصوته المميز أن الصلاة خير من النوم، كنت أشعر بالوجع في أطرافي وبدني وكان النوم يغالبني فتركت صحن الدار حيث كنت في غفلتي وتمددت على طرف الفرش، غطيت نفسي لأطرد رعشتي ولم أشعر بشيء حتى سمعت الخبطات على باب داري، قمت بكسل لأفتح الباب وأراه، كان واقفا والشمس ساقطة على رأسه من الخلف، أفسحت له فتحة الباب أكثر ودعوته للدخول:

ــ اتفضل يا سيد أفندي.. اتفضل، دي خطوه عزيزة، اتفضل، دانا زارني نبي، الدار مش قد المقام.. ما تآخذنيش يا سيد ع الفقر اللي محاوطني، دقيقة واحدة أفرش الحصيرة ع المصطبة.

أسرعت لأرفع الهلاهيل من فوق المصطبة قبل أن أفرشها وأمسك الباب، جلس يتأملني ويتأمل المكان قبل أن يسألني:

ــ ازي صحتك يا عم حسنين؟

ــ بخير يا سي سيد، بخير، المهم أنت، ازي حالك، أجيب لك فطار ولا أعمل لك شاي..؟

ــ ما تشغلش نفسك.

ــ يا خبر.. دانا لو أملك أعمل لك اللي يليق بيك، بس الحال زي ما أنت شايف، الفقر يا سي سيد بيحرم البني آدم من حاجات كثير، حتى من القعاد مع اللي غاب، مجرد القعاد والطمان، لك وحشة..

ــ ما تزعلش يا عم حسنين.

ـــ أنا اللي زعلني إني اتحرمت أقعد معك وأسألك، أشوفك وأتأملك وأسمع كلامك اللي اتحرمت منه، منهم لله اللي غيبوك عنا الوقت ده كله، بس أنت كويس، أيوه أنت كويس أهـــه، الست الوالدة قالت لي أكفي ع الخبر ماجور، وأنا لساني مـــا نطقـــش بحاجـــة لا ســـمح الله، الحاجات دي يلزمها الكتمان برضه، بس أنت كويس..

كنت حائرا ومشحونا بعشرات الأسئلة، وكنت خائفا أن أنطـــق بمـــا لا يليـــق وكـــان يسمعني ويتابع حركاتي بينما أجهز له ولي براد الشاي، أصبه وأناوله الكوب فيأخذه ويشرب ربما ليرضيني ولا يشعرني بالفارق بيني وبينه، لم أذكر له ما جرى من العمدة أو ما قاله عنه أو ما قلته أنا للست شوق، كنت أشعر بالارتباك وأخشى أن يفرغ كوب الشاي قبل أن أفرغ له ما كنت أمتلئ به من الأشواق أو أعرف ما كان من أخباره، لكنني كنت فـــي نفـــس الوقـــت عاجزا عن السؤال المباشر، ولابد أنه اكتشف قلقي قبل أن يباغتني:

ـــ العمدة كان عياز منك إيه يا عم حسنين؟

ـــ كان عيازني أبعبع شوية، بس أنا خفت عليك، خفت أغلط في الكلام، ما هـــو أنـــا أكيد كنت ح أغلط ف الكلام، أنا ما عرفش في الحاجات دي اللي يفيد م اللي يضر.. بس قلـــة الكلام أحسن.. ولا أنا غلطان؟ هي طبعا الست الوالدة لا بد أنها قالت لـــك، أنـــا مـــا كـــانش هاممني نفسي، على رأي المثل، إيش ياخد الريح من البلاط؟

ـــ فاكر فاروق يا عم حسنين؟

ـــ إلا فاكره.. بس أنا واخد على خاطري منه، أنا سمعته بوداني بيقـــول كـــلام مـــا يصحش إنه يتقال.. كتمت ف روحي ورجعت، إوعاك يا سي سيد تكون..

ـــ واحنا في المعتقل يا عم حسنين اكتشفنا أن هو اللي كان بيكتب عننا تقارير..

شعرت أنني خرجت لتوي من قاع القاع إلى سطح الدنيا، ونورت الشـــمس بضـــوئها قلبي، كان هو يتكلم ويحكي عن أشياء لا أفهمها، عن الغدر وبيع الصحاب، عن البوح بمـــا لا يجوز البوح به للحكام، عن الوشاية بالخلق والخداع، وعن الحبس والضرب وأوشـــك علـــى البكاء، لكنني في ذات الوقت كنت أشعر بنوع من الارتياح، ربما لأنه كان في هذه اللحظـــات ماثلا أمامي يتكلم بصوته، وربما لأنني رغم الجهل لم أخدع أو أنخدع أو أخون.

يوم نشلته من بطن الترعة:

زاد البحر الكبير وملأ الترع فامتلأت ترعة كفرنـــا بالمـــاء والطمـــي، نـــزل الأولاد وعاموا بين الشطين، سحرهم البحر ونساهم "صندوق الدنيا"، كنت أراهم يرمحون عرايا كمـــا ولدتهم أمهاتهم يرمحون ويرتمون بقفزاتهم نحو الماء، ينزل الصغار أكثر بحذر مـــن جنـــب الشط ثم يتراجعون، صعب أن يحصر البني آدم أطفال الشطآن أيام الفيضـــان، لكننـــي كنـــت

أراهم وأنا أجلس فوق الدكة جنب صندوق الدنيا، حيلتي ووسيلتي لاكتساب الرزق في تلك الأيام، قمت أطرد ولدين يترامیان بحفنات الطين، يغترفانها من قاع الترعة ثم يرمح الواحد منهم وراء الآخر، يرمي "بجالوص" الطين الأحمر في اتجاه الآخر ثم يفر منه ويغطس مرة أخرى في ماء الترعة، أصابت حفنة من طمي الترعة غطاء الصندوق فقمت أطردهما وألعنهما بغضب، وبدا لي وأنا أنظر ناحية البنت حميدة التي كانت تركب كتفي الولد عزوز "المنحنح" بدا لي أن فقاعات تطلع من جوف الترعة، فقاعات صغيرة لكنها مستمرة، صرخت في البنت فقفزت مبتعدة وقفز الولد عزوز أيضا وغير مكانه، وبدا لي أنني رأيت ظهر كف صغيرة تضرب السطح الغريني ثم تختفي، وربما كانت نظرات الولد العبيط والبنت "الهبلة" هي التي دلتني وأكدت لي ظنوني، كان سطح الماء ما زال يأخذ الفقاعات الصغيرة، تصعد إلى السطح قبل أن تتلاشى، وبالمداس دست على طرف شط الترعة، ومددت يدي، علق بكفي شيء، فتحسست وأنا أنزل أكثر وكأني أصيد قرموطا بكلتى الكفين، أمسكت البدن الغارق في بطن الترعة، وسحبته، كان ضئيلا ونحيلا وخفيف الوزن، وكان الطمي بقاع الترعة عالقا بنصفه الأسفل كله، كأنه عود مغروس في الطمي، وبعسر خلصت نفسي وخلصت الولد، وفقدت مداسي، قلبت الولد وطبلت على بطنه فأفرغ من المنخارين والفم رشاشات الماء، وأحاطني الخلق لا أدري كيف من كل اتجاه، سألوني إن كنت أعرف ابن من هذا الولد، كان في الثالثة وله ثياب تشبه أطفال البنادر فلم أجاوبهم، كنت مشغولا بإفراغ ما تبقى في جوفه من ماء الترعة، وعندما أفرغ الولد الماء المخلوط ببقايا الطعام الذي لم يهضمه اطمأن قلبي، كان الولد يبكي ويزيل خوفي من أن يكون قد اختنق بالغرق، وبدا لي رغم الخوف البادي في عينيه أنه ولد من جديد، فرت البنت الهبلة والولد العبيط من المكان، وحملت الولد في حضني أدفئه وكان يرتعش حتى جاءت امرأة من درب شلبي وأطلت على وجهه ثم خبطت صدرها بفزع:

ـ يا دي اللهو يا دي اللهو، يا خيبتك يا شوق يا بنت عبد الستار..

ساعتها عرفت أنه ابن شوق من حسن عوف، كانت المرأة بنت فضالي أمامي تندب وأنا أحمل الولد في حضني وأحاول إسكاتها دون فائدة ـ حتى وصلنا دار علام شلبي، وهناك جرى ما جرى، أم الولد أخذته في حضنها لكن علام لطم خديه قبل أن يلطمني بالكف ويسبني بأوسخ الشتائم:

ـ وجايب لنا نصيبه لحد باب دارنا يا خنزير؟

ـ ما هو صحيح.. آخرة خدمة الغز.

ـ غز إيه يا ابن ستة وستين كلب؟

ومرة أخرى صفعني، كنت في داره ، أسمع شتائمه ولا أعرف كيف أرد عليها، صعب علي حالي "ومداسي" الضائع وعجزي عن الرد، وصعب علي أنني عملت الخير فيمن لا يستحق أو يقدر.. لكن أم بكري سحبتني من المكان، زغدتني في صدري بخفة قبل أن توضح رأيها وكلانا في وسط الدرب بعيدا عن دار علام:

ــ ما هو أنت برضه غلطان يا مدندش، طلعت الولد م الترعة يبقى كان تكمل جميلك وتوديه لسته أم أبوه ف الناحية التانية، جايبه لجوز أمه؟ دا جوز أمه.

وتنهدت، تذكرت، كلام المرأة بنت فضالي أعماني وسحبني لسكة الندامة، وكلام أم بكري هداني وذكرني بما أوشك أن يغيب من بالي، ونصحتني أم بكري بأن آخذ الولد وأسلمه لأهله هناك في الناحية الأخرى، كنت مترددا وخائفا من زفارة لسان علام، لكنني تذكرت ما قاله عن الولد، وعدت وسخونة الأرض تلسعني وقد انتصف النهار وزاد صهد الشمس فذكرتني سخونة الأرض بمداسي الذي ضاع مني، وقبل أن أصل إلى باب الدار كنت أسمع الصراخ والأصوات تتداخل، وعلى الباب وقفت فساد صمت مؤقت وعاودوا الصراخ، لكنني كنت ما زلت أقف مكاني كصاحب دين يرغب في استرداده، سألت بنت فضالي وهي تلومني هي الأخرى:

ــ عايز إيه تاني يا مدهول، عايز تخرب عليها يا للي ينحش أجلك؟

كانت تنظر ناحية الست شوق، تلك التي كانت تجلس على الأرض، مربوطة الرأس بطرف طرحتها وكأنها قاعدة في "محزنة" نسوان، والآخر جالس يهز بدنه في كل اتجاه، لليمين واليسار للأمام والخلف، كأنه فقي من نوع غريب، ساكت غصبا، ربما لكي يحرمني من معرفة أسباب غضبه بمزيد من الكلام، وعلى غير إرادة مني نطق لساني دون تردد:

ــ هاتوا الولد..

تبادلوا النظرات، هل ترددوا أو أنهم كانوا يرغبون في ذلك ولا يهتدون إلى الفكرة التائهة عن عقولهم؟ ببطء حملته بنت فضالي من "حجر" شوق وناولته لي، أخذته في حضني وخرجت من دربهم بسرعة، ولم أشعر بسخونة الأرض وأنا أدخل الدرب الآخر حيث أهل الولد وناسه وجدته لأبيه التي قابلتني واختطفته مني خطفا وهي تستدير في اتجاه دارها، تنهج من أثر الرمح وتقول بعسر:

ــ يسترها معاك يا مدندش، يسترها معاك يا مدندش، يسترها معاك ويخليك، الخلق قالت لي ما صدقتش.. عمر الولد ده على إيديك.. يسترها معاك..

وفي وسط الدار كنت أجلس وقد غيرت للولد ثيابه، وحطت لي على الطبلية ما كان حاضرا من خبز طري وجبن ولبن وعسل أسود، وتعتذر لأن الدار ليس فيها طبيخ، تربت على ظهر الولد بحنو وتعدني بمداس جديد.

في كفرنا "النعناعي" لا ينضرب على بطنه إلا من ليس له ظهر، ولا ينضرب على ظهره إلا من ليس له سند أو عزوة أو نسب يحميه، والبهلول البهلول الناصح يحتال على الدنيا ويلاعب خلق الله، يهرب منهم إن كان الهرب ضرورة، ويداديهم إن أفلح، وإذا انقلبت أحوال الدنيا فلا مانع من أن ينقلب البهلول ويسبح في التيار، لكن الليثي ابن ابن الشحات ــ صبره الله على ما بلاه ــ لم يكن بهلولا ولا ناصحا، مجرد نفر "تمللي" بلا أهل لهم وزن أو قيمة ويجرؤ على نزول غيطان الأكابر، يجمع من جنينة الحاج مرسي ملء غبيط من العجور فيراه أنفار الحاج مرسي ويطاردونه ويمسكون به ويتوجهون إلى دوار العمدة الجديد الذي جاءته عمادة الكفر بشقاء العمر وحفاء الأقدام بين البندر والمأمور وأكابر المديرية، مثل هذا العمدة لا بد أن يثبت لناس الكفر أنه قادر وعادل ولا يحيد عن الحق شعرة، يزرع هيبته على حساب البسطاء وضدهم بدون رحمة، الحرامي في كفرنا بعملته حتى لو كانت السرقة خط عجور أصفر أو مدادة قثاء.

كنا في أواخر الصيف والشرد كابس على الأنفاس عندما طلبني شيخ البلد وطالبني بأن أزف الليثي ابن الشحات في دروب الكفر، جرسة مخصوصة والقصد منها تخويف الناس من حضرة جناب العمدة، وأنا طبال الكفر وزماره أعرف أصول مهنتي، أنسى صاحبي في مثل هذه الحالات وأقوم بما هو مطلوب مني لأعيش في منطقة الأمان، باختصار جرست الليثي ابن الشحات ودعوت الناس للحضور أمام دوار العمدة ليشهدوا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ما سوف يكون بعد التجريس، أنزلناه من على الحمار وأخذه الخفراء وربطوه بحبل قنب، إلى شجرة البأس، ظهره للخارج وبطنه وكل حاله في حضن الشجرة، وبالمقص قص أحدهم جلبابه من الناحيتين بحيث انكشف ظهره تماما لأن الجلباب كان ملبوسا على اللحم، نادى عمدة الكفر على البرقوقي الذي كانوا يخوفون به العيال أيام كان قاطعا للطريق وقبل أن يعينه حضرة العمدة خفيرا لا ندري كيف، لكنه عينه وهو الوحيد صاحب الحق في تعيين الخفراء على أيامنا، ناوله الفرقلة المعمولة من التيل الأبيض المجدول بإحكام وأمره بضرب المربوط على مهل ودون استعجال، برم البرقوقي شاربه المبروم وفرد ذراعه الطويلة ونزل على ظهر الليثي فاهتز جرع الشجرة واهتزت الأوراق، جعر الليثي بعزم صوته:

ــ آه.. أنا في عرض حضرة جناب العمدة.. سماح يا عمدة، أحب على إيدك، أحب على رجلك..

لكن العمدة أشار للبرقوقي ليواصل فواصل، كانت العلامة الثانية أبعد من العلامة الأولى وأقرب من العلامة الثالثة والولد يجعر:

ــ وأحب على مداسك يا حضرة جناب العمدة.

لكن العمدة أشار للبرقوقي فواصل على مهل حتى لم نعد نتبين الخطوط التي تداخلت وتقاربت ولونت ظهر الليثي بالأحمر المائل إلى الزرقة، وكان صوت الولد قد بـــح وأصـــبح خافتا والفرقلة تتلون بالأحمر القاني، كان ظهر الولد ينزف الدم وتيل الفرقلة يتشبع بالدم ثـــم يتلوى طرفها على الأرض في حركة مقصودة فتسف الترب وتسود قبل أن تتجه إلـــى ظهـــر المربوط الذي انقطع صوته قبل أن يشير العمدة بطرف إصبعه للبرقوقي فيكف، قـــال النـــاس للناس:

ــ العمدة ده مفتري.. الليثي غلطان.. دا انحش أجله، لا.. دا كدة انقطع خلفه يا ولداه، ملعون أبو الزمن الشلبي.

وأنا قلت لروحي أن الليثي انتهى، إن عاش يعيش مثل خيال المآتة، وإن مات فلحساب عمدة الكفر الجديد، ذلك أنه في مثل زماننا لا يجرؤ أي واحد أن يقول إنه غلطـــان، حرامـــي ممسوك بسرقة، صحيح أنه لم يسرق البهائم أو الدور، لكنه سرق الزرع فـــي زمـــان غيـــر الزمان الفائت، سرقة الزرع في السابق لم تكن تسمى سرقة، كان الأكابر يقولونها للأنفار:

ــ ما دام يا ولد بتاخد م الغيط لجل أكلك وأكل عيالك تبقى ما بتســـرقش، دا الغـــيط سبيل للسائل والمحروم.

على هذا فتحنا عيوننا وعقولنا، فهمناها مثل كل ما فهمناه من عادات وأحكام وحكـــم، لكنه جاء اليوم الذي يتمزق فيه ظهر من ليس له في الكفر عزوة أو أهل مـــن أجـــل غبـــيط عجور، وأنا راجع سألت نفسي بيني وبين نفسي، هل لو كنت مكـــان الليثـــي كـــان العمـــدة يضربني؟ واستبعدت الفكرة تماما وفكرت أنني غير الليثي وغير كل "تملية" الكفر، أنا بهلـــول وطبال، زمار ونداب، عمال جرس وفضائح، رقاص ورداح ومعدد على الأموات، من غيري لا يستقيم حال الكفر، أنا غير الأنفار، كاتم أسرار النسوان وأشباه الرجـــال فهـــل ترعشـــني وتخوفني فرقلة في يد البرقوقي مزقت لحم ظهر حرامي عبيط بواس أيادي ومداسات؟ أنا نفر غير كل الأنفار، أنا البهلول الأوحد، ربما أكون قد فكرت بهذه الطريقة لأنـــه مثلمـــا لســـاني طويل فيدي طويلة وخفيفة، بل إنه يصعب أن أتذكر يوما فات دون أن أمد يدي على زراعات ناس الكفر، الفقير قبل الغني، حضن برسيم للأرانب، حزمة فجل أو سريس، ســـيالة مملـــوءة بقرون الفول أو ملء منديل جميز أو توت أو طبخة بطاطس أو قلقاس، طيب لو أنني لم أفعل في أحد الأيام فكيف أعيش؟ آكل طوب؟ ملعون أبوك يا ليثي قلبت ميزان عقلي وشككتني في روحي".

مثل الوسواس الخناس ركبني عفريت الليل، شيطاني الكافر الزاني، أخرج لي لســـانه العقربي ولسعني بالسؤال: هل تجرؤ بصحيح يا ولد أن تنزل أي غيط من غيطـــان الأكـــابر؟ وجاوبت الوسواس الخناس بأنني أقدر فسألني إن كنت أجرؤ على نزول "الجنـــاين" الملفـــوف

على أشجار الكازورين التي تحيطها سلوك فيها أشواك؟ فقلت لشيطاني: أقدر، كنت أعرف أنه يقصد زراعات الأكابر من ناحية العمدة الجديد الشلبي، وكنت أرغب في إسكاته وإنهاء الكلام، لكن لسانه الممدود كان يسكن لساني وينطق بالكلام بصوت هو صوتي فأرد عليه بصوت هو صوتي، كأنني واحد ضد واحد يتجادلان في أمر مهم، يتبادلان الاتهامات والسخريات ويتعابثان، يتضاحكان ويتعاركان ويتشاتمان، هي عادة اعتدتها كلما اختليت بنفسي في أوقات القلق التي تطرح فيها الأسئلة التي لا أعرف لها ردا، أو أوقات الرغبة التي لا أملك لها حلا، انقسم إلى قسمين، بني آدم وشيطان، ملاك وإنسان، رجل وامرأة فاجرة، طفل وكهل، مملوك ومالك، حاكم ومحكوم، وعشرات أخرى من الأزواج المتضادة، الغريب الغريب أنني كنت أفض الاشتباك وأصل إلى رد السؤال أو تحقيق الرغبة، أهمد وأرتاح وأسكن مكاني، وما كان يخيفني في مثل هذه الحالات إلا ظهور الشخص الثالث، العاقل الذي لا ينحاز إلى أي الطرفين والذي هو أنا أيضا ولكن في منطقة الفرجة بعقل وعندما كنت ألمح ظله كنت أسارع بإسكات النفرين المتشاحنين، أسكتهم لأنه لو لم أسكتهم لطاش ميزاني وفقدت توازني وطار البرج الساكن دماغي وهذا هو ما تسمونه الجنون وما هو بجنون، هو في حساباتي نوع من الاستغناء عن كل ما هو خارج حدود الوعي والبدن، نوع من الكفاية والقدرة على استمرار اكتشاف السراديب والمسالك لكي تستمر الحياة، استقلال أو اكتمال ولو بالوهم لأن الكمال لله وحده ولعبده وسيد خلقه نبي الإسلام محمد شفيع المنكسرين والمنهوبين والمضروبين على بطونهم وظهورهم وأقفيتهم في يوم الدين.

قلت لكم إن الوسواس الخناس ركبني حماري وسلط نصف لساني على نصف لساني، حطني أمام روحي فأما أنني مجرد نفر بلا قيمة ولا وزن ولا قدرة، نفر لا يحسب الأكابر له حسابهم وهو ما أميل إليه، أو أنني برغم كل هذه الصفات التي قد تبدو على السطح للجهلاء، أقول أنني شخص مهم وله قيمة ووزن وقدرة، محسوب حسابه وله امتيازه الخصوصي عند الأكابر والأصاغر، وعلى رأي المثل "الماء الجاري يكذب الغطاس" وأنا غطاس ركب دماغه شيطانه الكافر الزاني وسيره على هواه، رماه في جنينة الحاج مرسي في وضح النهار، جعله يأخذ ملء حجر جلبابه عجورا أصفر رغم أنه لا يحتاج لأكثر من واحد أو اثنتين، ومن تحت السلك خرجت كما دخلت، وفي السكة رآني من رآني، شاكسوني بمرح وذكروني بما كان من أمر الليثي عند الدوار، لعل البعض منهم كان يرغب في استنكار ما جرى للولد أو ينفيه من دماغه، لعل البعض منهم شاء أن يطمئن نفسه بأن العدل الذي ادعاه العمدة لم يكن عدلا، ولعل البعض أراد أن يوقعني في شر أعمالي فلكل نفر في هذه الدنيا حساده وكارهو الخير له مهما كان هذا الخير قليلا لا يزيد عن حشو الجوف مجرد حشو الجوف وسترة البدن، وأنا لا أعرف حسادي بالاسم وإن كنت أشم رائحتهم من بعيد البعيد، صحيح أن العبد وسيده على باب

الله وأن الأمر لا يستحق لكن نفوس الناس لا تتشابه، وخسة الطبع تنمو وتـزداد كلمـا قفـز الوضعاء بلا أسباب فملكوا ما لم يكونوا يتصورون أو يتصور الناس أنه من الممكن أن يئول إليهم أو يصير في حوزتهم، تزداد خسة الطبع عند العبيد الفقراء أو الفقراء العبيد وهم عكـس الفقراء الأحرار كما تعرفون. ويا ويل الفقراء الأحرار من الفقراء العبيد يا ناس.

يومها كنت أمسك ذيل جلبابي المرفوع عاملا من فراغه "حجرا" تظهـر منـه ثمـار العجور، ولم أكن قد وصلت إلى الساقيات الثلاث عندما سمعت الصوت الطـالع مـن قلـب حوض أولاد عوف يحذرني وينبهني، لم أكن أعرف صاحب الصوت رغم أنه كـان مألوفـا وهو يخصني بالاسم:

ــ اهرب يا مدندش، الغفر بترمح وراك.

كانت مجرد التفاتة لمحت فيها وجه البرقوقي جنب فرحان الشوكي وهمـا يسـرعان بخطواتهما ناحيتي، مشي بهمة كأنه الجري، مشي يليق بالخفراء والعسكر في البنـدر وهـم يحملون البنادق على أكتافهم، كانت بيني وبينهما مسافة تسـع ثـورين أو بقـرتين وحمـار مسحوبين بحبل ساعة الرواح، فتحت قبضتي على ذيل جلبـابي فتسـاقطت ثمـار العجـور متدحرجة في منحدر ترعة المروي وشعرت بأنني خفيف وقادر على الطيران، وفـي وسـط الزرعات وعلى مجاري التراكيب كنت أرمح والخفيران يتصايحان وينقسمان إلـى فـريقين يتناديان ويطلبان ممن يلقاني من الخلق اعتراضي أو الإمساك بتلابيبي، كأنهما عصـابة مـن قطاع الطريق يحاصران ضحية في وضح النهار ويهددان بضرب النار، وكنت مثـل الـريح الطيارة أفر وأرمح حتى وصلت إلى البناية المعمولة زريبة لمواشي عبد القادر عـوف عنـد رأس غيطه، من لهفتي دخلت أحتمي بها وأطل من فتحاتها لأرى إن كنت على مرأى من أي واحد منهما أو إن كان قد اقترب، رأيته بشاربه الكثيف الذي اشتهر به وهو يقف في منتصف فراغ مدخل الزريبة فضمنت النجاة، قلت أستجير به وأنا ألتقط أنفاسي:

ــ أنا ف عرضك يا با عبد القادر.

ــ بترمح من مين يا وله؟

ــ م البرقوقي والشوكي، عايزين يضربوني بالنار..

ــ نار.. نار إيه؟ أنت قاتل قتيل ولا عامل عمله، تعالى الناحيادي.

وأنا أقترب منه خارجا من فتحة الزريبة متلصصا بنظراتي بقلق أقل فكرت قبـل أن أرد:

ــ ورحمة العمدة الكبير ما عملت حاجة تستاهل، طب أهو أنت يا با عبد القادر ابـن عمدة، وكان ممكن أنك تبقى عمده، بقى هو اللي ياخد عجورتين يأكلهم ينضرب بالنار؟

ــ كدهه.. عجورتين؟

ـــ ورحمة أبويا عجورتين، ليه ما هم مقطعين جلد الليثـــي ابـــن الشـــحات عشـــان عجورتين، دول ناس مفترين.

ـــ طيب اقعد.

قعدت بينما ظل هو واقفا، كان البرقوقي قد ظهر لي دون أن يخيفني، كأن الأمر لـــم يكن يخصني، وهل كان يحق لي أن أبدي أي انشغال وأنا في حماية عبد القادر ومسنود على جدار زريبة مواشيه؟ كانت خطوات البرقوقي الذي اقترب تتباطأ وتصير تسكعا بلا هـــدف أو تردد، وفي الناحية الأخرى انطلق نباح الكلب الأبيض الكبير فنظرت لأراه يعترض فرحـــان الشوكي الواقف قرب مدار التابوت المهجور وقد أمسك بندقيته بكلتى يديه وكأنـــه عســـكري يهودي على الضفة الأخرى يحرس المكان، لكن الكلب كان ينبح بثقة مالك الزمام، ينبح ويهز ذيله ويتقدم ليستعيد مسافة والشوكي ساكن في مكانه ويوشك أن يكون حائرا بسلاحه، وكلمـــا تقدم الكلب أكثر هوش ناحية الكلب بطرف سلاحه فيزداد الكلب صخبا وعنادا وتقـــدما حتـــى أجبر الشوكي على التراجع، علق سلاحه على كتفه ولم يفلح في أن يداري خزيـــه، انســـحب الشوكي واستدار فلم يتقدم الكلب أكثر، نبح نباحا مطمئنا وأسرع ناحية أقدام عبد القادر ليقعي وهو يهز ذيله المنتصر مثل راية، كلب أبيض أصيل من سلالة كلاب أصيلة، كلب ناصح يشم رائحة الظالم والمفتري وابن الحرام، كلب ابن عمدة ابن كلب عمدة راحت من فـــرع أســـرته عمادة الكفر فضيعها الفرع الآخر لحساب محدثي نعمة مفترين على الفقراء من خلق الله، كنت أتأمل الكلب بإعجاب ودهشة عندما سمعت صوت البرقوقي وقد وقف إلـــى جـــواره فرحـــان الشوكي الذي لف ودار ليحتمي بزميله:

ـــ العواف عليك يا با عبد القادر؟

ـــ يعافيك يا برقوقي.. ما لكم؟

ـــ مفيش حاجة تستاهل يا با عبد القادر.. مفيش، بس أنت حقـــائي ومـــا يخلصـــكش عمايل المدندش، بيبهدل ف زراعة الخلق ويدهوس في الجناين، وما دام احتمى فيك ما لنـــاش عنده حق، لجل خاطرك أنت ما لناش عنده حق، وسماح يا مدندش بس تتعهد لنا قصاد أبـــوك عبد القادر أنك تستقام، هو حد ف الكفر بيتأخر له ف طلب يا با عبد القادر؟ لزومه إيه بقـــى تقليع الزرع؟

نظر عبد القادر ناحيتي فأصابني خجل، كان ينتظر جوابي ولا أجد ما أقوله غير مـــا قلته:

ـــ اللي تؤمر بيه يا با عبد القادر ماشي على رقبتي.

ـــ وأنا ضامنه يا برقوقي، بس إن غلط ترجعوا لي وبلاش حكاية الرمح ف الغيطان، هو أنتو فاضيين؟ اتفضلوا الشاي.

بذلك قال عبد القادر فأراحني، طمأنني على ضمان حمايته لي ومن ورائه كل أولاد عوف، شوكة العمدة وناسه الساكنة في حلوقهم، ألقى البرقوقي تحية السلام فرد عليه عبد القادر وهو يجلس إلى جواري، يتابعهم في صمت وهم يتباعدون بينما راحته تداعب رأس الكلب في حنو وكأنه طفل رضيع، قام وقد تذكر شيئا فطاف بنظراته في أركان الغيطان ثم ثبت نظرته على مجموعة من الأطفال ترمح بين نخلات البلح فنادى.

ــ يا سيد.. سيد.. تعالى بسرعة، أوعى تقع.

كان سيد يرمح في اتجاهه بفرح، ارتمى في حضن جده وقد مال ليلتقطه ويحمله، كان الرجل يضحك بغبطة وسعادة وأنا أقترب منهما، أتأمل الولد الذي أنزله جده على الأرض قائلا:

ــ لأ.. لأ.. إحنا ح نتخاصم يا حسنين أنا والولد ده. أنت يا ولد مش متفق ما تبعدش عني..؟

قلت أشاركه الفرحة بسيد:

ــ بسم الله ما شاء الله.. بسم الله ما شاء الله.. معلش يا با عبد القادر، ما عادش يبعد تاني..

أشار عبد القادر إلى شجرة التوت وهو يأخذ كف الولد الصغيرة في يده:

ــ نزل السبت المتعلق ده وطلع لنا الغدا على ما أغسل للعكروت ده إيديه.. شوف إيدك بقت عاملة إزاي يا سيد؟

كنت أسمعه رغم انشغالي بإنزال السلة المعلقة على فرع الشجرة وإخراج الطعام لأضعه فوق الحصير المفروش تحت العنبة، أسمعه وهو يهدهده ويلاغيه ويغسل يديه من ماء القلة، يمسح عن وجهه بكفه المبلولة آثار اللعب والعرق ويجففه بطرف جلبابه الخفيف.

يعود في اتجاهي ويجلسان، يتذكر:

ــ الولد ده كان عمره على إيديك يا حسنين، ومهما عملنا لك مش ح نقدر نكافئك.

ــ يا خبر أبيض يا با عبد القادر، تكافئوني إيه وأنا لحم كتافي من خيركم؟ دانا عايش على حسكم ف كل الناحية، طيب دا كفاية وقفتك معايا النهاردة، دي تسوى الدنيا بحالها، أصل أنت ما شفتش اللي عملوه ف الليثي.

ــ محدش منهم يستجري يبص لك.

ــ بحسك برضه..

ــ وأصل دول ناس لمامه، شبع من بعد جوع، أنت إيه اللي كان وداك؟

ــ يمين بالله ما أنا عارف يا با عبد القادر، أنا حتى ما بحبش العجور.

ــ تبقى رزالة يا ولد.

ـــ وماله يا با عبد القادر لما النفر يتازل ويلقح بلاه ع الناس دي؟ يستاهلوا ولا ما يستاهلوش؟ دول كلهم كده.. ولا على إيه؟ بلاش عشان سواد عيون سي سيد، إنما ما قلتليش يا سي سيد، بتحب جدك قد إيه؟

فتح ذراعيه على اتساعهما فضحكنا، ربت عبد القادر على ظهره قبل أن يضع في فمه لقمة صغيرة ويدعوه لمضغها وهو يمثل للولد كيفية مضغ الطعام بطريقة أضحكته، وساعتها صدقت المثل القائل إن أعز الأولاد هم أولاد الأولاد، لم تأت سيرة حسن ولم أشأ أن أسأل عنه حتى لا أقلب المواجع لأن مثل هذه الجراح لا تطيب ولأنه ليس لهجر الأرض والأهل طب ولا دواء، قلت إنه مغفل لأنه ترك الكفر وناسه، وأنه فشل في زواجه مرتين وجنى على الولدين، وأنه يوم يموت عبد القادر فسوف تكون تلك بداية خراب الدار.

ـــ رحت لحد فين يا مدندش؟

أفقت على سؤاله وكاد لساني يبوح بما كان يدور في عقلي لكنني منعته، قلت للرجل وكأنني أرمح هاربا:

ـــ ح أروح فين يا با عبد القادر؟ أنا وياك أهه.

لم يكن يصدقني لكنه تنهد، نظر إلى الولد وقال بينما يهز رأسه:

ـــ أبوه ح يتجوز تاني اليومين دول.

ـــ تاني؟

سألت باندهاش فتابع هو:

ـــ خلصناه من بنت شلبي بطلوع الروح، كانت ح توصله للقتل، وأهي جابت عيل ملوش ذنب، يروح فين ده؟ أفرض أني مت ح يروح فين عيل زي ده؟ لجوز أمه ولا مرات أبوه؟

ـــ يديك طولة العمر يا با عبد القادر، يديك طولة العمر، حسك في الدنيا بحالها، وربنا يخليك لهم، أهم بيدلعوا عليك.

ويبدو أنني طيبت خاطره ففتح لي في تلك الظهيرة قلبه فرأيته صندوقا مسكوكا على ثل من الأحزان، ورأيته كتابا مفتوحا واضح الصفحات على عكس كل ما كان يقال عنه، أشفقت عليه وأنا المقطوع الضائع والمحروم، قلت لروحي إنه لا المال ولا الصحة ولا عزوة الرجال تقدر أن تداوي جرحا مثل جرحه، وقلت إن النعمة ثقيلة على بعض الناس، ثقيلة على واحد مثل حسن ذلك الذي لم يكتف بالفرار، وإنما رمى هموم خلفته على الرجل، وقلت لروحي إن الرجل بانت عليه علامات الشيخوخة فجأة وأنه مثلنا يشكو وقد كنت أحسبه ماردا لا تطوله الأحزان، لكنه كان حزينا في تلك الظهيرة ولم يكن يداري حزنه، كأنما اطمأن إلى

قدرتي على الكتمان أحيانا، حتى عندما جاء صالح وجلس إلى جوار سيد لم يتوقف الرجل عن البوح بأسباب حزنه وقهره في أواخر أيامه:

ــ اللي زيي كان يقعد يرتاح في وسط عياله وعيال عياله، مش يفضل ناعي الهم على طول..

ويبدو أن صالح لم يكن يرضيه أن يسمع تلك النغمة من الرجل، ذلك أنه بجرأة قاطعة وملء فمه بقايا طعام:

ــ يا سيدي افتكر لنا حاجة حلوه تفتح النفس.. ما تقول حاجة يا سيد أفندي.. يا غالي يا بن الغالي، هو يخلف وغيره يربي ويعلل ويشيل الهم.

قال عبارته الأخيرة وهو يربت ظهر الطفل الذي لم يكن قد أكمل عامه الخامس بعد والذي كان ينظر باندهاش وعجز عن الكلام، وزام عبد القادر معترضا على طريقة صالح الخشنة، وتقابلت نظرات الرجل مع الشاب المفتون بصباه والذي يتجاسر على المقاطعة على غير ما كنت أتوقع، لكن عبد القادر لم يفوتها له، قال وكان يعني ما يقوله:

ــ قوم من قصادي دلوقت لحسن أقوم أدفس رأسك ف الطين.

وبخفة قام صالح، تباعد وهو يبرطم بكلام غامض لكنه اعتراض الواثق من الفوز في نهاية المطاف وربما المتأكد من تحقيق كل أغراضه في الزمن الآتي.

سوق الخميس في البندر تجار وسماسرة وشطار ولصوص مواش وجزارون وضحايا ونصابون، القرش فيه صياد واللسان سلاح مسنون وله حدين، ولأمثالي في السوق رزق بسيط لكنه يرضيني، شيء مثل الحسنة المخفية أتناولها في كفي بغمزة عين أو ضغطة كف، أدسها في جيبي وأنصرف لحالي أو أبقى مع من أعطى إن كان يميل إلى مشاركتي سكة الرجوع، نثرثر في سلامة البهيمة وسعرها المعقول إن كان شاريا أو نجاحنا في الحصول على الثمن المناسب وإفلاتنا في نصاحة التجار وحيل السماسرة إن كان بائعا، أتحول إلى شريك مرفوع في سكة الرجوع وأستشعر الدفء إن دعاني للغداء احتفالا بالنجاة على هذا النحو إن كان وقوفي معه بالفعل قد نجاه، وأنا نوادري في السوق قليلة وخبرتي به أقل، غاية ما هناك أنني في العادة أذهب لأشعر بونس آخر غير ونس السهرات في الليل الممدود، يسرقني نهار السوق من هم النهار كما تسرقني السهراية وحسن الصحبة من هم الليل، ولأنني لا أحب السمسرة لا يرتاح لوجودي السماسرة لأنني بحسب أقوال البعض منهم مثل قطاعين الأرزاق، لساني مفلوت وقادر على تنبيه من يهمني أمره في الوقت المناسب، وقد حاولوا معي عشرات المرات فلم أتعلم أو بدا لهم أنني لن أتعلم، والحقيقة أن المسألة ليست سحرا ولا طلاسم ولا حتى خبرة كما يقولون، المسألة قلة ضمير، السمسار الشاطر الشاطر هو الذي تخلص من ذمته أو على الأقل تركها في الظل عند باب السوق قبل الدخول، يتآمر مع

الطرفين إن استطاع أو يتآمر مع طرف على الطرف الآخر، يبيع البائع للمشتري أو يبيع المشتري للبائع، لكنه في كل الأحوال لا يترك الطرف الذي تآمر عليه قبل الحصول على أتعابه وبإلحاح ثم يستدير ليأخذ ممن لعب لحسابه في الخفاء ويأخذ، ورشاد الأعور ساكن الدار المجاورة لداري يفعلها في كل خميس ويعرف في كل سوق كيف يفلت من ملامة المخدوعين، وفي ذلك الخميس كان رشاد الأعور هناك، وكنت أراه وأعرف من نظراته أنه باع ابن بلده الفقير للتاجر الجزار، كانت جاموسة ابن الشرشابي واقفة وإلى جوارها عجلها الرضيع، جاموسة تستحق بصحيح لكن رشاد الأعور الملعون غمز بعينه الوحيد لمعارفه من السماسرة بما يعني عدم الاقتراب، ومن بعيد كنت أراه يحوم حول التاجر الجزار ويتهامس معه مبديا على ما بدا لي أنه بارع في توقيف الأحوال، باختصار وبدون الدخول في تفاصيل صعب علي حال ابن الشرشابي وهو واقف إلى جوار الجاموسة وعجلها تحت الشمس الحامية دون أن يقترب منه واحد يوحد الله، وعندما جلس على الأرض في يأس جاءه رشاد الأعور وتحدث إليه بكلام، اقتربت فأشار إليّ رشاد طالبا مني الابتعاد:

ــ أسرح في حتة تانية يا مدندش.

ــ لهو كان سوق أبوك يا رشاد؟

ــ لم لسانك لأحط البلغة في حنكك.

ــ بلغة مين يا بو بلغة، علي الحرام أقطعها على نافوخك.

كان ابن الشرشابي يبدو مثل غريق تعلق بقشة التي هي رشاد الأعور، لكن القشة تتعارك وربما تطيرها رياح العراك، قام ابن الشرشابي واتجه ناحيتي وأوصاني بأن أقصر لساني من أجل خاطره، وبأن آخذ حقي من رشاد في الكفر بدلا من الفضائح في السوق وسط الغرباء، بيني وبين نفسي لم أكن مرتاحا لكلام ابن الشرشابي لكنني طاوعته وسكت، بل إنني تباعدت واحتميت بظل شجرة توت في ركن السوق، طلبت من البنت التي تصب الشاي من برادها أن تصب لي كوبا وأوصيتها بتزويد السكر، وأنا أحب الشاي الزائد سكره، جلست وهدأت وأوشكت أن أنسى عراكي والنسيان نعمة، لكنني سمعت سمسارا من عزبة الشراقوة يتحدث مع سمسار آخر بصوت مسموع عن الجاموسة وعجلها التي سوف تباع بنصف الثمن، انتبهت ونظرت فرأيت التاجر الجزار ورشاد الأعور وسمسار عزبة الشراقوة يحيطون بابن الشرشابي، وزن في دماغي دبور: "ربما يا ولد عاركك رشاد لكي يبعدك، وربما ضحك على ابن الشرشابي بأي كلام، ربما لو ظللت في نفس مكانك يخسر ابن الشرشابي جاموسته وأنت موجود لكنه وجود كالعدم، وقلت لروحي ما لك أنت بابن الشرشابي يا مدندش؟ كن في حالك يا مدندش، أنت تجر على نفسك البلاوي يا مدندش، لا هي جاموسة أمك ولا عمك ولا ابن الشرشابي من أهلك، قلت لروحي ولكن كلامي لروحي مردود عليه، هو كلام فارغ في واقع

الأمر، نوع من الهروب والخوف وتبرير السكوت على الغلط، المهم أن سمسار عزبة الشراقوة رجع وهمس في أذن الآخر فتبعه بهمة، كنت أراهم يحيطون بابن بلدي مثل نصابين مولد البدوي، وقلت إنني ما لم أتدخل فسوف يبيع ابن الشرشابي بخسارة كبيرة ولن يرتاح في تلك الليلة ضميري، وقمت ولحسن حظ ابن الشرشابي في الوقت المناسب، عندما رآني رأيت في عينيه نظرة انكسار المغصوب المغلوب على أمره والذي أجبرته الحاجة على البيع بسعر بخس ربما ليسد دينا استدانه أو يقضي غرضا طارئا لم يعمل حسابه، قلت لأقطع كل الألسنة التي كانت تحاصره بكلام يكسر المجاديف مثل: خلص روحك، الفلوس جاهزة، توكل على الله.. السوق انفض.. بارك له يا جدع.. سلمه حبلها.. بكيفه.. طلع الفلوس وعدها له على البركة.. عصابة يا ناس فهل كنت أسكت؟ لم أسكت، أمسكت حبل الجاموسة في يميني وقلت للتاجر:

ـ مش ح نبيع.

ـ وأنت داخلك إيه؟ امشي انجر من قصادي..

ـ أمش إزاي؟ دانا شريك في الجاموسة دي.. ما تتكلم يا شرشابي..

ـ أيوه شريك.. شريك بالربع.

ـ بقى ده وش شركة ده؟

ـ مش وش شركة ليه، ناقص إيد ولا رجل؟

وطال الكلام ووقفت المركبة على شط الأمان قبل أن تنجرف في منحدر الخسارة الظاهرة، ومن جديد بدأ الفصال، زاد السعر خمسين جنيها لأجل خاطري كما قال التاجر وأعوانه وطلع ابن الشرشابي من الحفرة التي حفرها له رشاد الأعور، واحد غير رشاد الأعور كان يطق يموت، تصيبه حمرة الخجل وقد انكشف كل غطاء ساعة عد الفلوس، فالتاجر الجزار وقد بدا له أنني حويط وغويط وقادر على تسيير دفة المراكب أو توقيف المراكب التي تسير فكر بسرعة أن يشتريني لحسابه، ناولني ما فيه النصيب فلم أمانع، أخذته وأضفته إلى الفلوس التي قبضها ابن الشرشابي لأؤكد للكل أنني شريكه بحق وأنني لم أتدخل رغبة في التدخل أو الربح أو قطع الأرزاق، واحد غير رشاد الأعور كان ينكتم كتمة المدمس لكنه بعبع وهاج وطالب بأتعابه من الجزار التاجر، أتعابه وأتعاب أتباعه الذي عطلوا أشغالهم من أجل هذه البيعة فنظر إليه التاجر باستخفاف وقال:

ـ علي الحرام من ديني أنت ما تنفع سمسار ولا تستاهل في السوق خمسة أبيض.

ـ عيب يا معلم، أنت في سوق بلدنا وما يصحش.

ـ أنت خليت فيها عيب يا أعور؟ بلدك إيه يا بو بلد. أنا مش دفعت الفلوس بزيادة يا أعور..؟ دفعت إنما مبسوط ع الأقل كسبت راجل، امش بقى غور من وشي منك له له.

قالها وعيناه تقدحان شررا مشرورا قابلا لإشعال كل ما يعترضه، تسحب رشاد الأعور خطوات ثم فوجئت به يرجع وقد رفع فردة مداسه ونزل بها في اتجاهي لولا أن سترها الستار فأبعدت دماغي في الوقت المناسب، وطارت في السوق شرارة العراك واكتشفنا أن للتاجر الجزار في أركان السوق أعوانا وصبيانا جاهزين للضرب بالسكاكين والعصي ويقدرون على الفرار في أنسب الأوقات وقد فعلوها، تركوا في أرض السوق قتيلا مجهولا وخمسة جرحى أو مصابين بكسور قطعية تنزف ومن بينهم رشاد الأعور نفسه وأنا كنت أفترش الأرض وأبكي حالي ما زلت بسبب ما فعله رشاد الذي رفع مداسه بغرض ضربي وإهانتي فرماه الله بمن هو أقوى منه وأقدر، التاجر الجزار أسلم حبل الجاموسة لواحد من صبيانه وكأنه فص ملح ذاب في فرع النيل، كان ابن الشرشابي على جانبي، يطيب خاطري ويستشهد بما جرى للسماسرة على يد أتباع الجزارين، يطالبني بأن أحمد الله وأشكر فضله فأحمد الله وأشكر فضله، عيبي بحسابات هذا الزمان أنني كنت دائما أحمد الله وأشكر فضله على الصحة والستر والرزق القليل، وعيبي أنني أحببت كل ناس الكفر وأحببت تراب الكفر فهل يستحق مثلي في هذا الزمان ضرب المداس؟ يضربني رشاد الأعور وقد كبرت وقلت قدرتي على الحركة المألوفة؟ وماذا لو لم يكن هناك ذلك النوع من الرجال الذي قال أنه كسبني باعتباري رجلا وليته ما قال لكي يعفيني من مشروع الضرب بالمداس الذي هو إهانة ما بعدها إهانة، أنا حسنين المدندش الذي شفت في عمري كيف تغيرت الأحوال وتبدلت وكيف كانت مصائر الكبار والصغار تأتي مخالفة للبدايات، فاروق الملك نفسه بدا تقيا ونقيا وأشاعوا أنه يصلي فروض اليوم في أوقاتها، ملك مثل الحلم والأمل يخيب فيه الرجاء في آخر المطاف، يطرده عساكره وضباطه بعد أن فاحت رائحة مفاسده من كل ناحية، قمار وحريم وعربدة وسمسرة في السلاح وخيانة بلد، ومحمد نجيب الذي حدثنا عن القناعة والسماحة ولقمة نرميها للقطة، أزاحته مطامح ضباطه وحددوا إقامته كما قال أصحاب سيد أفندي، كأنه مسجون في المرج حتى يحين أجله المحتوم، وعبد الناصر الذي بشرنا بانتهاء عصر الاستعباد، طالبنا أن نرفع الرءوس، وارفع رأسك يا أخي، وأيها الأخوة المواطنون، والنصر في بورسعيد بعد تأميم القناة الذي لم أكن أفهم معناه وأوافق عليه، حديد وصلب وجمعيات زراعية واشتراكية عربية وإحساس بأن البلد بلد البسطاء أمثالي هؤلاء الذي استعادوا كرامتهم رغم ما كان يشاع عن إهدارها في الخفاء خلف أسوار السجون والمعتقلات، أشياء سمعت عنها ولم أشهدها بنفسي لكنني تأكدت من حدوثها عندما أخذت عساكره سيد أفندي وأصحابه، والغريب الغريب أن من وشى بهم وكتب عنهم التقارير كان فاروق أفندي، كأنما تأتى للنفر الضربة من حيث لا يتوقع فتطحنه وتتوه وعيه وتفقده الثقة في الدنيا والناس، وكيف انتهى عبد الناصر الذي كان مثل الشهاب الطالع، الزارع في القلوب حلم المستقبل والقادر

على تحريك مشاعرنا في الاتجاه الذي يريده، كيف انتهى عبد الناصر وقد انكسرت شوكته وتحامل على عوده الفارع الذي كان يداري موته بحسرة قبل الموت بسنوات، بدايته غير نهايته، والسادات الذي انحنى لصورة عبد الناصر وعاهدنا أن يمشي على هدى خطاه، الوفي للذكرى والذي بدا للناس في العباءة وبدلة التشريفة وياقات قمصانه البيضاء وكلامه عن حكايات جدته وناسه في ميت أبو الكوم القريبة من كفرنا الموعود بأولاد شلبي، يتقافزون مثل القرود ويملكون، يصاحبون أولاد الليل ويدفعون لهم كي ينفذوا أغراضهم، يأخذون عمادة الكفر من الفرع الخائب في أولاد عوف ويركبون على أكتاف الفقراء ويسلخون جلودهم إذا فكر الواحد منهم في أن يرفع رأسه، الخطير الخطير أن أشكال الظلم وأنواعه تختلف من زمن إلى زمن لكنها أبدا لا تنتهي أو تزول، يظل الفقراء مطية لمن يملكون ويحكمون ويتحكمون، حتى من شارك الفقراء فقرهم زمنا يتناساه ويردم على ماضيه إن استطاع وينسى ذاكرة الناس أو يتوهم أن ما فات مات رغم أن ما فات يبقى ولا ينتهي أثره بهذه البساطة، ما لنا بزمن السادات الذي انتهى بضرب النار، لا شيء يأتي من فراغ كما يقول الأفندية وتقول الكتب المطبوعة، كان السادات يحكي لنا الحكايات، ويبدو أنه كان يحلم في الليل ويفسر لنا الأحلام كلاما يطير النوم من عيون البعض ويجلبه للبعض الآخر، لكنه حارب اليهود وكسب الحرب خلافا لكل ما تصورناه، وصالح اليهود أيضا خلافا لكل ما توقعناه، وأنا لا أفهم في السياسة شيئا، لكنه أفرج في أوائل أيام حكمه عن المحبوسين في مسائل السياسة إلى حد القول بأنه لم يكن في المعتقلات مساجين ثم انتهى أمره بحبس الآلاف والآلاف من أصحاب المناصب ومن كانوا بحساباتنا يعملون لحسابه، ولأنني لا أفهم التفاصيل فإنني أكتفي باستخلاص العبرة الظاهرة من تبدل الأحوال واختلاف المصائر عن البدايات كأنه مكتوب علينا أن ننتهي على عكس ما بدأنا، شيء خطير ذلك الذي يصيبنا يا ناس، فلماذا نحن دون سائر خلق الله في كل أركان الأرض يحصل فينا؟ وهل نستحقه؟ وهل أستحق أنا البهلول الحاوي والعارف كل مخازيهم والساكت على بلاويهم أن يرفع رشاد الأعور مداسه على مشهد ومرأى من كل ناس السوق غرباء ومعارف، يرفع مداسه قاصدا رأسي أو دماغي أو عقلي؟ رشاد الأعور؟ النهاب السراق النصاب السمسار معدوم الذمة، وهل جاء زمنه وزمن أمثاله بحق وغربت شمس أمثالي من القانعين بالستر وعشاق الخير لكل الناس؟ صحيح أنني بحسابات البعض "ولا في الكير ولا النفير" لكنني أشارككم في المكان والزمان، أنا بحسب كلام عبد الناصر مواطن ولي في بلدكم ميراث، وليس من الضروري أن يملك النفر في زمام الكفر الذي يعيش فيه أرضا ليحصل على حقوق المواطنة، ويحصل عليها كل من عاش وتربى وشارك واحتمل وتحمس للمستقبل وحافظ على صفحته بيضاء وبشرف عاش، وهو مجرد كلام في كلام في كلام بحسابات من طلعوا على سلم الصعود فوق البسطاء في غفلة فصاروا بشرا من نوع آخر

جديد غير البشر الذين كنا نعرفهم في الزمن القديم أو الذين كنا نتمنى أن نلقاهم في مستقبل الأيام. وفي كفرنا وكل الكفور البعيدة يعيش البعض منا ليحافظ على النسل والبعض الآخر ليحافظ على الثروة وحيز الامتلاك لكنه هناك ناس تعيش لتحافظ على ما حفظناه عن الأجداد من أقوال وأمثال وسير وأفكار سواء كانت في علاقة الرجل المخلوق بربه أو بغيره من عباد الله، ولأنه لا شيء يبقى على حاله تتبدل في الظاهر أمور وتبقى في الكامن أمور لا تقبل التبديل، وربما بسبب ذلك حبسوا ثم قتلوا سيد أفندي وأمثاله، هؤلاء الذين عاموا في عكس اتجاه الريح، ولأن رياح التبديل فاتت على كفرنا فتسيد التجار والسماسرة وبياعو الكلام الحلو من طرف اللسان فصعدوا فلا بد أن دور أمثالي قد انتهى وراح أو لا بد من أن ينتهي ويروح، لكنهم يعيشون في غفلة إذا حسبوا أن الأمر سوف ينتهي بإهانة في سوق الخميس يرتكبها سمسار خطاف لا يعرف الحياء معدوم الضمير يدخل السوق وقد ترك على بابه ما تبقى من ذمته إن كان قد تبقى منها شيء، ينزع من قلبه كل أشكال الرحمة ويتاجر دون رأسمال في مواشي الخلق ولا يتراجع إذا جاءته الفرصة لبيع الناس وشقاء الناس وعرق الناس، سوق الخميس والقرش الصياد والعمولات المستورة والمكشوفة وزمن من يتسيدون دون أن يصبحوا بالفعل سادة، ذلك أنهم يتبعون السادة الأكبر الذين ساعدوهم على أن يتسيدوا على من هم أكرم منهم وأوعى إلى حد أن يتخطى سمسار نصاب حدوده مع بهلول حر لم يبع روحه للسفهاء.

موت عبد القادر كان نهاية زمن وبداية زمن، على الأقل في داره ونسله وأرضه، مشهده جمع البعيد والقريب، الذين خاصمهم وخاصموه والذين احتملهم واحتملوه، كان رغم العمى المفاجئ الذي أصابه في أواخر أيامه حاضرا ومؤثرا، موجودا في أذهان الناس وصاحيا، لكنه عندما مات تحول إلى مرحوم فات تركة يلزم أن يتسلمها وريث أو رثة، ورغم وجود حسن كانت الناس تعزي صالح وكأنه الأصل والآخر فرع، حسن نفسه لم يكن واعيا بما يدور حوله، لقد رجع ومعه سيد الصبي وزوجة جديدة من أهالي البندر، والدار لم تكن خالية لتسعه مع الآخرين الذين توافدوا وأقاموا كأنما عن قصد وبأهداف مبيتة دبرها أكابر الفرع، حسبوها وانتهوا إلى اختيار صالح وأولاده، سمعنا عن مشاحنات بين الحريم لم نعرها في البداية أي اهتمام، ورأينا سيد يرمح وراء الحمار ببنطلونه القصير وقميصه الأبيض وحذائه الأسود، لبس مدارس يخالف ثياب الفلاحين، وقلنا إنه لابد سوف يحول أوراقه إلى مدرسة البندر لكنه لم يفعل، كأنما كان حسن يعرف أو يحس أن وجوده في الكفر مؤقت، ومثلما جاء رحل، جاء بليل ورحل بليل وتحدث الناس عن أوراق مكتوبة ومختومة تنقل ملكية الأرض والدار إلى صالح بالبيع مدفوع الثمن وبشهادة إبراهيم ابن إبراهيم وعطية ابن علي وهما أقرب الأقارب، قلنا إنه من الممكن أن يكون عبد القادر قد وقعها بالفعل وختم عليها

بخاتمه أو بصمها ببصمته كي يحافظ على ميراثه في يد من يحميه ولا يبدده، وقلنا إنه من الممكن أن يكون بريئا من مثل هذا التصرف الذي لا يرضي الشرع أو الأصول، ويمكن أن يكون العقلاء من فرعهم قد دبروها لحسابات حسبوها، فكروا أنه من الممكن أن يبعدوا الوريث الأصلي لينفردوا بصالح وهو قليل الخبرة ويمكن زحزحته أو حتى تسييره حسب الهوى والمصلحة، ولكل واحد في هذه الدنيا حساباته، فرع شوكته بارزة وقد لاحت الفرصة لكسرها حتى تتساوى الفروع فلماذا لا يفعلون؟ وقد فعلوا بتدبير أو بالتواطؤ أو بالسكوت، وهكذا تحول موت عبد القادر إلى نهاية زمن وبداية زمن، نهاية زمن الطيف السارح في البلاد البعيدة والممكن رجوعه إذا تصالح مع عبد القادر يوما، كان حسن في كل الأذهان طيفا قابلا للرجوع وريثا لعبد القادر لكنه عندما خرج كان الطيف الغائب قد اختار أن يبقى هناك، أن يتباعد عن ذاكرة الناس وتتمحي سيرته باعتباره من ناس الكفر، يغيب غيبته ويرجع عندما يحين الوقت، قلت لكم مرة إنه لم يكن على ذمة الكفر وهذا صحيح إنما بعد موت عبد القادر، قبلها كان على ذمة الكفر وكنا ننتظره، لكنه لم يرجع إلا ليشيع الجنازة مثله مثل أي غريب، وكانت الناس تتكلم قبل أن تعرف ما سوف يحدث، عن الميراث الشرعي الذي سوف يصل إليه رغم التباعد والابتعاد، فالشرع في كفرنا هو الشرع، لكنه ليس بالشرع وحده يتعامل الناس في مثل هذه الأمور، كنت أتذكر جلستنا يوم العجور الذي احتميت فيه بعبد القادر فحماني، أتذكر كيف كان يحنو على سيد الطفل ويداعبه بكل الحب وكل الأشواق كأي جد يتمنى إسعاد حفيده عندما يراه بعد طول غياب، كيف غضب من صالح وثار عليه وأمره بالابتعاد لمجرد أنه تحدث إليه بطريقة لا ترضيه، صحيح أنني فكرت يومها أن صالح سوف يكسب في نهاية المشوار لكنه لم تخطر ببالي احتمالات أن يسكت أو يوافق مثل هذا الرجل على ظلم حفيده الأصغر لحساب حفيده الأكبر، وربما بسبب ذلك فكرت أن في الأمر حيلة مدبرة لم يعرف عنها الرجل أي شيء أو يفكر في تدبيرها في حياته، والمسألة من أولها إلى آخرها مجرد اجتهاد، اجتهاد نفر بعيد عن الدار وأهلها، شيء أقل بكثير من اجتهاد المحاكم والقضاة الذين يحكمون في قضايا المواريث وعندهم كل الأوراق وكل إمكانيات العدل، ومع ذلك لا يتحقق كل العدل، وهل تحقق في كفرنا العدل أبدا؟ العدل كلمة منطوقة ومكتوبة ومقروءة، كلمة لها وزن وقدرة على إراحة النفوس إذا تحققت مرة، وعلى إزهاقها عندما يعتم على نورها جدار الظلم القادر أن يحجب عنا شعاع الشمس، لكنه يحدث أن يعرف الناس أو يعرف القاضي حقيقة الأشياء وينطقون عن الهوى، يقول الناس معكوس الحقيقة لمصلحة محسوبة أو محتملة، ويحكم القاضي بعكس ما يشعره لأنه محكوم بأوراق وشهادات بشر وبراعات محامين في الدفاع عمن دفعوا لهم الأتعاب، ولأن العدل لم يتحقق أبدا فقد كان من الممكن أن يحدث ما حدث عندما خسر صاحب الحق الشرعي قضيته أمام ابنه رغم اقتناع

الناس وحسن نوايا من نطق الحكم محكوما بما لا يملك تجاهله مكتوبا في الأوراق، وآه من الأوراق، تحكمنا وتتحكم في مصائرنا، تخدعنا أو تنور طريقنا، تعلمنا الحقيقة أو تفسد أدمغتنا، تروى عطشنا أو توردنا في صحراء الكذب ناحية السراب، تفيدنا أو تضرنا ولا نملك إذا عشقناها إمكانيات الخلاص من أثرها أو سحرها على مدى الأيام.

في كفرنا "الخروبي" يذكر الناس محاسن موتاهم ويتناسون المعايب، ولأن الموت نهاية كل حي فهم يذكرون محاسن الأموات دائما وكأنهم يبادلون ما يفعلونه اليوم بما سوف يفعله الأحياء يوم أن ينتهي أجل الواحد منهم في الساعة المكتوبة، هو عمل طيب على كل حال وإن كنت أشك أحيانا في أنه خالص لوجه الله وحقيقة الموت، ذلك أن البعض ينسى أو يتناسى تلك الحقيقة البسيطة المتكررة ويتعامل مع الدنيا وكأنها سوف تدوم، مع أنها لم تدم للنبي المرسل ولا دامت للملوك أو الأكابر أو حتى للفراعين الذين حكموا الدنيا بأسرها وتذكروا حقيقة الموت فحنطوا الأبدان وابتنوا مدافن وأهرامات لحفظ تلك الأبدان وكأنما لنتعلم منهم تلك الحقيقة، ولقد حاولنا في كفرنا أن نذكر محاسن حضرة جناب العمدة القتيل فعجزنا في أول الأمر لأن سيرته خلت من المحاسن، وتذكرنا عباءاته وجلابيبه وشيلان عماماته وقفاطينه وطاقياته المشغولة بالإبرة وبغرزة رجل الغراب لا ندري لماذا، وموت الأغنياء في كفرنا "البطيخي" غير موت الفقراء مثلما هو موت الصبي غير موت العجوز وموت التقي غير موت الفسدان، كان المرحوم الذي لا تجوز عليه غير الرحمة "قلاتيا" وكذابا وسكيرا ومقامرا ونهابا وظالما، حتى في موته كان ظالما للفقراء، يرحمه الله فللأموات حرمة وللكفار نار جهنم وكل شيء بعلم الواحد القهار.

بيني وبينكم أنا مكتوم وأرغب في البوح، بالأمس حضرنا ذكرى الأربعين فيحق لنا أن ينفلت اللسان ويشهد بما كان، انضرب العمدة برصاصة مجهولة المصدر عند باب الدوار ونزف الدم حتى جاءت الإسعاف، حملته السيارة مع أهله وناسه وبينهم الدكتور برهان ومن باب الاحتياط أخذوا الزناتي ابن الشحات، وتبادلنا الأسئلة عن السبب فالزناتي مجرد نفر "تمللي" يشتغل في الغيط والدوار بلقمته وكسوته وخمس قراريط يزرعها خلافا لكل أنفار الكفر، النفر في كفرنا يأخذ من القراريط عشرينا أو يأخذ فدانا لحسابه مقابل كده وشقاء روحه، إنما الزناتي منكوب بالشغل سخرة طرف حضرة جناب العمدة، مص دمه حيا وميتا، وهي المرة الأولى التي يمص فيها إنسان دم إنسان حتى ينهي أجله، كان الدكتور برهان يعرف ولا ندري كيف أن فصيلة دم الزناتي هي نفس فصيلة دم العمدة الذي انضرب بالنار، ولأنها فصيلة نادرة طلب الدكتور برهان من الزناتي ابن الشحات أن يركب فركب في استسلام وطاعة ولم يكن يدري أنها آخر ركوبة، من دمه نقلوا للعمدة في المستشفى المخصوص بإشراف الدكتور برهان كل ما طالوه، وأنا أمرني شيخ البلد بأن ألف وأدور

وأنادي على من يتطوع للعمد بدمه نظير وعد بمكافأة، أدور وأنادي فلا يتحمس الناس، حتى أهله لم يتحمس منهم غير العارف أن فصيلة دمه مختلفة، ومن لا يعرفون في مسألة الفصائل لا يذهبون، وطالت ساعات السعي والانتظار حتى جاءت الإشارة بانتهاء أجله المحتوم فلا نفعه دم ابن الزناتي ولا دم شفيقة بنت المساح تلك التي أخذوها من بين من أخذوهم غصبا عن أنوفهم وحبات عيونهم بالتخويف والتهديد فاستسلموا وأسلموا أنفسهم وركبوا عربات أولاد شلبي المخصوص وراحوا للمستشفى المخصوص تكشف عليهم الممرضات فلا يجدن غير شفيقة بنت المساح التي ينفع دمها من بين كل من راح برضاه أو غصبا عن أهله وناسه، المهم أن العمدة الجديد راح في خبر كان وبعيار واحد مطلوق في الكبد حسب ما قال الدكتور برهان ابن عم القتيل، ذلك الذي لم يهدأ طوال الوقت أو يرحم الزناتي أو بنت المساح، فبعد ساعة واحدة من موت العمدة مات الزناتي بهبوط في القلب كما قالت الحكيمة ونهاية أجل وطبيعي كما قال الدكتور برهان للناس، المهم أنه في الصباح التالي اتجهت إلى مدافن كفرنا جنازتان، واحدة يتقدمها أكابر الناحية ورجال الإدارة ومأمور المركز وبعض أهالي العمدة بينما كل ناس تمشي في جنازة الزناتي ابن الشحات "ويا دايم أنت الدايم ولا دايم غير الله.." يرددونها مثلما رددوها في جنازات الشهداء، طال اليوم وطال وحل المساء فانفتحت مندرة العزاء المجاورة للدوار فلم يذهب من الأهالي إلا بضعة أنفار، ربما لأنهم كانوا في مندرة أولاد الشرقاوي التي انفتحت لأخذ العزاء في الزناتي ابن الشحات، وربما كانت هي المرة الأولى التي يتفوق فيها الفقراء على أصحاب السلطان في منادر العزاء، وخلافا لكل ما كان مألوفا انقلبت حسابات الأكابر عن كفرنا الغويط الغويط مثل بئر يوسف عليه السلام.

امتلأ الكفر بالعسكر والمخبرين وعاد وكيل النيابة بعد أيام ليعاين المكان مرة أخرى رغم أنه عاينه يوم ضرب العمدة، قلنا إنه لا بد قد وصلت إليه معلومات جديدة حقيقية أو شكاوى كيدية تتصل بما جرى، وكان المأمور هناك في الدوار، ودوار العمدة بناية جديدة من أيام الحاج مرسي، مخفية من الخارج وراء سورها من شجر الكازورين والكافور الموصلة جذوعه بالأسلاك الشائكة ما بين كل سلك وسلك قيراطان أو ثلاثة قراريط بمقاس أصابع اليد وحتى ارتفاع قامة أطول رجل في الكفر، والدوار محروس بالخفراء وكلاب المرحوم المشهورة بأكل اللحم والتي لا تكف عن النباح عمال على بطال وتوشك أن تقطع الطريق على العابرين، بناية في وسع على سكة مخصوص، وربما بسبب كل ذلك احتار حضرة وكيل النيابة وغضب المأمور، من شدة غضبه حلف بشرفه أنه لن يهدأ أو يهنأ له بال قبل أن يعرف الفاعل المجهول، وربما بسبب اليمين الذي حلفه عاد وكيل النيابة ليعاين المكان من جديد ويسأل الخفراء، ومن ناحيته عين المأمور حضرة الصول عرفان لحفظ الأمن وحماية الضعفاء من الأقوياء وإدارة شئون الكفر، أصبح كفرنا "المستقيم" بغير عمدة فترة من الزمن طالت

وطالت خلافا لكل الظنون، صار الأمر في يد العساكر الذين يأمرهم حضرة الصول عرفان، وصار كفرنا "البهلولي" اسما على مسمى، بيني وبينكم ارتحنا من سخافات البرقوقي والشوكي والبهنساوي ومشايخ البلد الطماعين مفتوحي الحلوق والبطون بلا خجل ولا حياء، وغاية ما كان يتكلفه ناس كفرنا الكرماء هو اللقمة اللائقة يقدمونها للعساكر ولحضرة الصول، ناس في مهمة حراسة كفر وقد تركوا بيوتهم وأولادهم في البندر من أجل خاطرنا فهل يستخسر ناس الكفر فيهم اللقمة أو كوب الشاي أو السيجارة أو أي شيء يحتاج إليه الغريب الساكن في غير مسكنه، أنتم تعرفون أن الكلام في مثل هذه الأمور عيب، لكن بعض ناس الكفر كانت تتكلم عن اتساع بطون العساكر واتساع ذمم المخبرين وصل الأمر إلى مبالغات وتشنيعات لا يصدقها العقلاء حول دخول عسكري إلى دار يطلب الشاي أو الدخان أو يشارك في وجبة عشاء فيأكل اللحم ويترك لأهل الدار الجلد والشغت والعظام، وصل الأمر إلى اتهام البعض بطلب الطيور الحية وعلب القشدة والسمن المقدوح والجبن القريش، يطلبونها الواحد تلو الآخر قبل أن يسافر إلى بلده في أجازة الأسبوع، سمعنا هذا الكلام وأكثر منه مثلما سمعنا عن الصول عرفان الأكثر جرأة والذي كان يطمع في الخروف الحي أو النعجة، يهدد بإمكانيات توجيه التهمة المعلقة في دائرة المجهول ما لم تنفذ له كل الطلبات، طلباته وطلبات حضرة المأمور، ولا مانع من ذكر وكيل النيابة والطبيب الشرعي وبعض أهل الحل والربط في إدارة المركز، وصحيح أن مثل هذه الأمور يمكن أن تحدث مع الأكابر، لأن الأكابر يملكون وغالبا ما يدفعون ولا يتكلمون لأسباب لا يعرفها أمثالي من الفقراء، يمكن مثلا أن الأكابر من أهل العمدة كانوا يسعون من ناحيتهم إلى معرفة الفاعل بكل الوسائل، ولابد أنه من بين الوسائل المشروعة إرضاء من يملكون إعطاء الموضوع اهتماما يزيد وينقص حسب الأحوال ودرجة رضاهم عن أصحاب الدم وضد من أراقوه على عتبة الدوار.. الغريب الغريب أن القتل تم على عتبة الدوار يا ناس، لا أحد رأى ولا كلب نبح ولا ظل نفر بان فهل جاءت الرصاصة من ناحية جن أزرق يتخفى عن عيون الناس أو طبت من السماء؟ ولأن المأمور من أنشط المأمورين فقد أمر بتفتيش كل البيوت المشكوك في أمرها أو المحتمل أن لأصحابها دورا ولو من بعيد، عثروا بالطبع على بنادق ومقاريط وأسلحة أخرى بدون تراخيص فصادروها وأخذوا أصحابها رهائن لحين التأكد من استخدام أحد هذه الأسلحة في الحادث، وطال الاحتجاز رغم ما قيل من أنه ولا سلاح من تلك التي صادرتها الحكومة له علاقة بالرصاصة المطلوقة، عملوا قضايا حيازات بدون تراخيص طبعا قبل أن يخرج من أخذوهم ظلما، وربما بسبب ما جرى لهؤلاء بعد القبض العشوائي غضب أكثرية الناس في كفرنا "الصالح" من المأمور ورجال الضبط ومن كل الحكومة، تلك التي تعرف ولابد أن القتيل له أعداء من الكفر ومن خارج الكفر وأن سمعته سيئة وسيره أعوج فكيف انقلبت من أجله الدنيا ولم تحرك نفس

الحكومة واحدا يسأل الناس رأيها في تصفية دم الزناتي الشحات قطرة قطرة وحتى آخر نقطة تفصل بين الموت والحياة من أجل سواد عيون العمدة الذي لم يكن في كل عمره عادلا في شيء، وهل للفقر والغنى في نظر الحكومة كل هذا التأثير، ألم يلاحظ رجالهم ليلة العزاء انعدام المعزين من ناس الكفر عن الاتجاه إلى مندرة العمدة التي بناها الحاج مرسي بعد أن عينته الحكومة عمدة فكان يراعي الأصول أحيانا ولا يخلع برقع الحياء كما فعل ابنه من بعده، صحيح أن كليهما افترى لكن هناك فرق، وصحيح أنه بعد موت الليثي الشحات الذي مزق البرقوقي ظهره العريان بأمر الحاج مرسي، صحيح أن الحاج مرسي أخذ أصغر أولاد الشحات ورباه من خيره، لكنه ليكون عبدا مجانيا قليل التكاليف، يخدم ولا يحق له أن ينطق وهو في قبضة العمدة وابنه الذي تولى من بعده، كأنه بهيمة لا يحق له الشكاية إذا تعرى أو جاع أو صفوا دمه بشهادة الجميع مدعين أنه تطوع باختياره لينقذ ولي نعمته، سيده وابن سيده، لكنهم لم يعرفوا أن الناس في كفرنا "الصالح" تتناسى بإرادتها زمنا لكنها لا تنسى، أن أسباب الغضب كانت ساكنة في قيعان القلوب وجاهزة لمن يطلقها بسهم آخر جديد فتظهر على السطح شتائم وتشنيعات وشائعات ونكات حزينة عن العمدة ونجاسة ذيل العمدة وأصل ناس العمدة، بداياتهم غير البعيدة وهم يفدون إلى كفرنا بالحيل والألاعيب واكتساب ثقة البسطاء أولا ثم الانقلاب عليهم وقد امتلكوهم، وربما التقط المخبرون والعسكر مثل هذا الكلام وأبلغوه لحضرة الصول عرفان فأبلغه إلى حضرة المأمور الذي أمره بالبقاء وزوده بقوة إضافية وأرجأ تعيين عمدة جديد إلى وقت آخر، ربما إلى أن تهدأ النفوس وينسى الناس ما جرى، ورتب العساكر أمرهم على مأمورية طويلة ورتب الناس أمورهم على احتمال المزيد من واجبات الضيافة الجبرية، يؤدونها غصبا وعلى مضض "واصبر على جار السوء" وبقدر ما استباح العساكر خبز البيوت بقدر ما سمح الناس لبعضهم في استعادة سيرة العمدة وذكر بلاويه المخفية والظاهرة، كان المرحوم مصيبة وحطت على أدمغة الفقراء حيا وميتا، الكل خسر في وجوده وبعد رحيله، وأنا خسرت الكثير الكثير ما بين موت سيد أفندي غدرا وموت العمدة قصاصا عادلا من رب السماء، ذلك أنه طوال هذه الأيام كان أتباعه من النمامين والخفراء والواشين الكذبة يضعونني حيثما كنت تحت الملاحظة، ولا بد أنهم كانوا يحسبون خطواتي ويسجلون أقوالي لينالوا عنده الحظوة وتزداد ثقته فيهم، قبلها أيضا لم يكن بيني وبينه عمار، مرة طلب مني أن أكون جاسوسه على سيد أفندي فدافعت الست شوق عن سيد أفندي وعني، وفي زمنه تجاسر رشاد الأعور ورفع مداسه بهدف ضربي أمام الناس في السوق لولا شهامة الغرباء، وفي زمن أبيه أيضا طاردني الخفراء لولا حماية المرحوم عبد القادر، كيلي منه طفح وفاض مثل بقية خلق الله من الفقراء، وإذا نسيت كل شيء فهل أقدر على نسيان وجه الزناتي وهو راقد وخرطوم مص الدم مثبت في ذراعه وقطرات من دمه تتساقط بضعف

في الزجاجة بينما الزجاجة الأخرى المملوءة بدمه معلقة في ذراع العمدة، امتصاص لآخر قطرة بأمر الطبيب الجاهل برهان ابن زاهر ابن هارون، ساعتها طردني برهان لكنه لم يخدعني لأبدل فكرتي بأن ما كنت أراه هو امتصاص دم الفقير العاجز لحساب الغني المالك القادر الذي تجبر واستباح كل شيء حتى دم شفيقة بنت المساح التي أصابها شلل لكنها بالإشارة تبوح رغم الخرس إذا ذكرتها بما جرى في ذلك النهار البعيد، يومها وأنا راجع من سكة البندر تمنيت أن يغور من الدنيا ليتأكد لي عدل السماء، ويومها طال السوس مخزون القمح في داري لأول مرة رغم أنه كان في "الزالوع" فوجئت بالسوس يزحف خارجا من فتحة صغيرة، كنت أشعر بالحزن والوجع والخوف من ذل السؤال وقد فسد المخزون، لكنني أيضا خلعت طاقيتي ورفعت رأسي للسماء أطلب عدلها ومن الله رحمته فاستجابت السماء وجاءت الإشارة في نفس الليلة بأنه مات وأنه لم ينفع معه طب ولا دواء ولا مد الدم المسلوب في عمره يوما، بانت لي الأمارة وتحقق الرجاء ففرحت بيني وبين نفسي ونسيت همي وقلت للسوس اشبع بقمح "الزالوع" فسوف يأتيني رزقي ولن أجوع، وليلتها رأيت في المنام سيد أفندي المغدور ينهض من رقدته على الأرض، رأيت الدم الممزوج بالأرض يتطهر من كل الشوائب ويرجع إلى مكانه، وبيده شد على يدي مرحبا ثم ناولني حقيبة خفيفة كما كان يفعل، وإلى جواره سرت في المنعطفات حتى دخلنا دار صالح الذي أخذه في حضنه وكأنما استعاده من قبضة الموت، فهل كان صالح هو الذي استعاده بالفعل، لا أدري، لكنني عندما صحوت من نومي كنت أشعر بالراحة وكأنني بالفعل استعدت للحياة سيد أفندي المغدور.

حكم العساكر كفرنا بعد موت العمدة يوسف ابن مرسي، كان الصول عرفان ينام ويقوم ويجلس في النقطة الثابتة والعساكر والخفراء والمخبرون وبرابرة الهجانة يتوجهون إليه ومنه يأخذون الأوامر، ورغم السعي وكثرة الأسئلة لم تتوصل الحكومة إلى بداية الخيط في مسألة موت العمدة يوسف أو موت الزناتي في المستشفى الأميري، كانت الناس في الكفر ساكنة على غير عادتها، ربما بسبب وجود العساكر الغرباء والصول الداهية لم يعد ناس الكفر يثرثرون، حتى الأطفال كانوا لا يتكلمون مع أي غريب، كأنهم اتفقوا فيما بينهم على الكتمان، وأنا كنت في السابق أظن أن ناس الكفر مجرد فئران داخل مصيدة مفتاح بابها في جيب المأمور أو من يتبع المأمور، لكن ما جرى أكد لي أن فكرتي كانت غلطا في غلط، وعندما طال وجود العساكر الغرباء والصول الداهية، لم يعد ناس الكفر يثرثرون، حياتهم بشكل جديد، طلباتهم يدبرونها قبل غروب الشمس من الكفر أو من البندر إنما قبل غروب الشمس وبداية منع التجوال، كأنهم كانوا بذلك يريحون الصول من طلباتهم بأن يسمح لهم بقضاء الحاجات أو الحركة في دروب الكفر ليلا بإشراف العساكر، أو كانوا يريحون أنفسهم، وهؤلاء الذين اعتادوا السهر في المقاهي كانوا يسهرون في البيوت، كل ليلة في بيت، يتجمعون حول

"راكية" الدار ويدخنون المعسل السادة أو المغموس بالحشيش، والغريب أن بعض العساكر والمخبرين كانوا يأتون ويشاركونهم السهر، يتحدثون عن الجنازة الحارة والميت الكلب أو الذئب أو الحنش الذي تسبب في اغترابهم وابتعادهم عن بيوتهم وعيالهم والذي حرمهم من الرقاد المرتاح، يقولون مثل هذا الكلام في محاولات متكررة لفتح سيرة يوسف أو معرفة أسماء أعداء يوسف من أهالي الكفر، لكن الناس كانت تتبادل النظرات ولا ترد، كانت دائرة المراقبة تضيق وتضيق حول الناس لكنهم لم يفشوا سرا أو يبح أي واحد منهم بشيء ولو كان مجرد ظنون أو شبهات يفكرون فيها، كأنهم آمنوا أن الحكومة حكومة وأن الأهالي أهالي وأن من وظائف الحكومة حماية الأمن والنظام ومعرفة أسباب الجرائم وأسماء من ارتكبوها، كأنه كان الناس في كفرنا يعيشون في واد والحكومة في واد آخر، وصحيح صحيح أن الكثيرين كانوا يعرفون أو على الأقل يظنون لكنهم سكتوا، ورغم الكلام عن العدل وضرورة أن يبوح من يعرف بما يعرف ليتحقق في الدنيا عدل الحكومة وحتى لا تسود في دروب الكفر فوضى لا نهاية لها، وكلام كثير مثل هذا قاله الخفراء والعساكر والمخبرون لكن الناس ظلت على حالها ساكتة، ربما كانوا يقولون لأنفسهم مثلما كنت أقول لنفسي.. وأين كانت الحكومة وعساكرها أيام مقتل سيد أفندي؟ وأين كان رجالها ومخبروها عندما تمت تصفية دمه؟ أم أن الأمر من أوله لآخره مجرد غابة يتحكم فيها ويحكمها من يقدرون ضد من لا يقدرون؟ كانت المسألة بحساباتي وربما بحسابات الناس هي تحقيق العدل الرباني في الوقت المناسب لأنه من قتل يقتل، ولأن الله مالك الملك يمهل ولا يهمل، عدله سبحانه أعدل من عدل كل حكومات الدنيا، لكن حكومتنا كانت عن هذه الحقيقة البسيطة غفلانة أو جاهلة، والوحيد الوحيد الذي استفاد من وجوده كل هذا الوقت في النقطة الثابتة كان الصول عرفان، لعله كان يطلب من الله أن تظل هذه القضية منظورة ووجوده ممدودا إلى أجل غير مسمى.

كان الأكابر من أولاد شلبي يذهبون إلى مكتب المأمور ومكاتب الإدارة لمتابعة آخر الأخبار، وشاعت إشاعات عن إكراميات قدمها البعض منهم لأتباع المأمور أو للمأمور نفسه لكي يرضى عنه ويزكيه لمنصب العمدة الخالي، وقال البعض إن المأمور لم يمانع في إعطاء الوعود لأكثر من واحد منهم، ولابد أنهم تأخروا كثيرا قبل أن يكتشفوا الخدعة، فالمأمور نفسه صدر قرار بنقله إلى البداري وهي مركز في الصعيد الجواني لا يذهب إليه غير المغضوب عليهم من رجال الإدارة، ضاعت الهدايا والإكراميات على الساعين والصيادين في الماء العكر وجاء مأمور جديد بوجه جديد ورأي جديد فتمنينا أن تعود عمادة الكفر إلى أولاد عوف مرة أخرى، لكن الصول عرفان كان هناك لا يزال في النقطة الثابتة يفتي ويتكلم عن استحالة عودة نظام العمادة إلى كفر مشاغب مثل كفرنا كل يوم يسقط منه قتيل وناسه مثل العميان الطرشان أو المخروسين الساكتين، يقول ويضحك ثم يمد قدميه ويخلع مداسه الثقيل فتفوح من قدميه تلك

الرائحة النتنة التي تزكم الأنوف وتجبرنا على الالتفاف إلى ناحية أخرى قبل أن نتباعد عــن نقطته الثابتة أو نفكر مجالسته وقد دعانا للجلوس.

سلمان ودواره

سلمان ابن بنت هارون أعطاني عمري وأعطيته عمره وسبحان مسبب الأسباب فقد كان كلانا منذورا للموت أو هكذا قالوا، قالت أمي لنساء الكفر وقال أبي لرجاله وقال الناس للناس، سلمان تربي في حضني وتربيت أنا في حضنه وكان الناس يقولون لنا دائما.. أنتما أخوان شقيقان، ولا بد أننا كنا في ذلك الزمن البعيد مثل توأمين لا نتباعد عن بعضنا أبدا، كنت أحسبه شقيقي ابن أبي وأمي حتى تكشفت لي في طفولتي بعض الأمارات وبانت لي وله بعض معاني الحكايات، لكنه لم يكن لمثل هذه الأمارات أو الحكايات في ذلك الوقت أي أثر محسوس، كان سلمان بحسب ما قالوا ابن بنت هارون التي ماتت بعد ولادته بساعات، وكانت أمي في نفس الليلة تلدني، ولقد ولدت أمي من قبلي تسعة عشر بطنا خائبة بحسب ما كانت تقول "تلد وتدفن" تلد وتدفن بعد ساعات أو أيام وفي أحسن الحالات بعد ثلاثة أسابيع، وفي حالتي اختلف الأمر، حملوا إليها سلمان فأرضعته من لبن "المسمار" مثلما أرضعتني، نيمتني إلى جواره فحماني من غضب الجن الساكن تحت الأرض.

كان أبي أيامها يطبل لهارون ونسل هارون، وكان يقول أن خبز دارنا من خيرهم وأن أدامهم يملأ بطوننا مقابل رعاية سلمان الذي بقى معنا، كان أبي يتباهى بوجود سلمان في دارنا وكانت أمي هي الأخرى ترعانا بالعدل دون أن تميز أحدنا عن الآخر:

ــ والنبي يا ختي كنت أمد إيدي والدنيا مدغشة وأرضع العيل منهم لحد ما يشبع أرجعه مطرحه وآخد التاني ما عرف أنهو منهم ابني وأنهو ابن بنت هارون، وربنا شاهد على كلامي.

كانت أمي وبقيت تملك ثديين مدرارين، أرضعت من قبلنا كل أطفال الناس في كفرنا أو على الأقل أكثرهم، ومن هذه الناحية فأنا شقيق للكل مثلما أنا شقيق سلمان، وكانت أمي النحيلة تؤكد للكل أن الجن الساكن سابع أرض يركبها وأنه يتجلى لها في الظلام ويحذرها من أي تفرقة في رعاية سلمان ورعايتي، كانوا يهددونها فتعدهم بالعدل الكامل، وكانت تنفذ وعدها بحذر ودقة، فمن نفس اللبن كنا نتغذى وعلى نفس الفراش كنا ننام، وبنفس الغذاء فطمتنا مثلما كانت تنظف جسدينا في نفس الوقت، كانت تخشى، إن هي فرقت بيننا في أي شيء من غضب الجن الساكن سابع أرض، ولها معهم تجارب مؤكدة، هو جن غضاب لا يرحم، فبضربة كف كان ينهي عمر كل مواليدها قبلي، كان يضرب المولود في كل مرة

ويترك آثار الكفوف ظاهرة لها وواضحة على أجزاء متفرقة من أجسام المواليد الذين فقدتهم قبل مولدي.

ظل سلمان في دارنا حبلا سريا يجذبنا إلى دار هارون وبسببه كان خير دارهم يصل إلينا، فالزائر منهم يأتي بجلبابين أو بقميصين ولباسين، والمانح في الأعياد يعطيني مثل سلمان القرش الأبيض فتفرح أمي أو أم سلمان أيضا التي هي أمي وأمه بخالص السماح والرضا والقدرة على التربية حتى كبرنا وصرنا نذهب معا إلى الكتاب كل صباح ونحاول وسط العيال أن نحفظ دون أن نفهم معنى الآيات.

سأحدثكم عن يتم الفقراء، الفقراء يتامى يا ناس حتى في وجود الأب والأم، كنت صغيرا عندما أخذوا سلمان إلى دار خاله عزت شلبي، عزت شلبي ابن هارون جاء في المساء وجلس في صحن دارنا، كانت أمي تبكي وكان أبي ينظر ناحيتي ولا يتكلم، لكن عزت كان يحتضن سلمان وحده ويبعدني، وعندما قام حمله وحده وأزاحني عن سكته، أمر أمي بأن تسكت وأن تسكتني أيضا وأنا أصرخ وأطلب منه إعادة أخي سلمان، وأمسك بي أبي، حاول إسكاتي بالكلام فلم أسكت فحط كفه على فمي وحملني وأنا أرفس الهواء وجلباب أبي وبطنه وعزت شلبي يخرج من دارنا ويخلو مكان سلمان فيصبح الفراش باردا وأشعر بضياع نصفي، وفي الصباح أهرب وأذهب إلى دار عزت شلبي، أبحث عن سلمان ويسعى ناحيتي، نهرب معا إلى خلاء الغيطان حتى يعثروا علينا، ومن جديد يأخذونه بعيدا عني ويأخذونني بعيدا عنه، ولا بد أنني كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري في تلك الأيام ولا بد أنني لم أكن على استعداد لتصديق تلك الأكاذيب التي كرروها على مسامعي قائلين أن سلمان ليس أخي وأنه ابن بنت هارون التي ماتت بعد مولده وأن أمي أخذته لترضعه مثلما أرضعت العشرات قبله وبأجر، لم أكن أصدق الكلام المسبوق بكلام عكسه حول أننا أخوان شقيقان، سلمان نفسه كان يهرب من دار خاله ويأتي إلى دارنا، يلعب معي ويوسخ ملابسه التي كانت تختلف عن ملابسي، وكانوا يأتون ويأخذونه بغضب وفي بعض المرات كانوا يوبخون أمي أو أبي لأن ابنهم سوف يفسد الولد ابن الناس ويحرضه على الهرب من دار العز التي يملكها خاله عزت إلى دارنا الخربة، كانت أمي تبكي وأبي يسكت ونادرا ما كان يرد، لكنني وجدت الحل في الذهاب إلى سلمان، ألعب معه دون صوت وأكتم أنفاسي، وساعة العشاء يضعون لي شيئا من طعام على سطح لقمة جافة فآكلها لأسد جوعي من كثرة اللعب والغياب عن دارنا، كنت أبقى هناك حتى يصرفوني بخشونة أو بسخرية غليظة فأنصرف، كان سلمان في دمي وكنت في دمه، وكنت كلما حصلت على شيء يقبل القسمة أرمح إليه وأقتسمه معه، برتقالة أو حفنة بلح تمر أو حتى "شرش" جزر، وكان هو من ناحيته يفعل نفس الشيء أو يحاول ولا يتمكن فيحدثني في اللقاء التالي عن عنقود العنب الذي حصل عليه ولم يستطع أن يشركني في حباته

أو حفنة الزبيب البناتي التي احتفظ لي بنصيب منها، كان بيت عزت شلبي مثل الجدار الذي يسد حارتنا ويمنع وصول الشمس إلى واجهتها، ولا بد أنني سئمت من كثرة المحاولات الفاشلة في عبوره بعد الصعود فوقه وركوبه كما أركب الحمار، ذلك أن النزول من فوقه كان يعني بحسب ما سمعت من الكبار "كسر رقبتي على صدري" ، ولست أعرف كيف كنت أفكر هكذا وأنظر إلى الجدار ودار عزت شلبي بنفس الطريقة، لكنني قللت من الذهاب إلى هناك، وإذا ذهبت تحدثت إلى سلمان أو استمعت إلى حديثه قبل أن أتسحب خارجا من الدار دون أن يهتم بدخولي أو خروجي أحد، كنت أشعر بالمهانة وأنا وحدي، وكنت أبكي أحيانا عندما ينشغل سلمان عني بأكل شيء دون أن يعطيني خلافا لما كان يحدث في السابق، لكنها كانت أوامر الكبار التي بدأ ينفذها لينول رضاهم، كان سلمان يتبدل في دار خاله، وكنت أنا أتبدل في دروب الكفر ودور الخلق ومشاوير المدافن في صباحات كل خميس للحصول على رحمة الأموات الجدد من الفواكه أو القرص والقراقيش، كنت أتبدل في الغيطان الممتدة والتي تهب البني آدم خيرها دون سخرية أو تأنيب أو طرد، وكنت أستطيع أن أدبر حالي من طلوع الشمس وحتى إلى ما بعد غروبها بساعات، آكل وأشرب ونادرا ما كنت أجوع، لكن سلمان كان يتبدل بطريقة أخرى، لبس الجزمة والشراب مع القميص الأفرنجي والبنطلون القصير وحمل مخلاة الكتب والكراريس وصار من تلاميذ المدرسة في البندر، أقابله بكل الشوق فيرد علي بأدب، أدب أولاد الناس الذي يغيظ، أدب لا ينكر الحب لكنه لا يظهره، أدب الأفندية الغرباء وهم يأخذون الأنفار لخدمة الباشا والبك باللقمة التي تسمم البدن، على هذا لنحو كان يتحدث أبي عنهم، عن الأفندية الغرباء وعن الأفندية الجدد من أولاد شلبي، وكنت أفهم مقاصده، ولا بد أنني كنت في السابعة أو الثامنة عندما كان أبي يحدثني عن كل ما يخفيه في عقله من أسرار، يستشيرني في كيفية الخروج من ورطة أو مشكلة وأرد عليه فيهز رأسه استحسانا في بعض المرات أو يعترض بشدة في مرات أخرى، ولم يكن يكتفي بالاعتراض، بل كان يوبخني على عدم الفهم أو التفكير بشكل أهبل، كنت شريكه وكان شريكي نتبادل الكلام الفارغ والكلام المهم ونشعر بالونس عندما تخلو لنا دروب الكفر أو براح الغيطان.

كان حديثنا معا هو الذي هداني إلى حقيقة يتم الفقراء، فسلمان ابن بنت هارون الذي كانت أمي تتباهى بأنها قامت بتربيته إلى أن زال همه هو سلمان الذي كانت تتسمى باسمه في بعض الأحيان فيناديها البعض بأم سلمان وتجاوبهم بفرح، سلمان الذي قاسمني فيها هو نفسه سلمان الذي أخذه عزت وعلم قلبه النسيان إلى حد إنكاري في بعض الحالات، وعندما كنت أسأل أبي عن الأسباب كان يجاوبني بنفس الكلمات التي حفظتها عن ظهر قلب:

ــ ما هو كدة يا حسنين يا بني، لا العين بتعلا على الحاجب ولا الميه بتطلع العالي.

ــ ليه.

ـــ أهو كدة وخلاص، وما عرفش ليه.

وكنت أشعر أنه يعرف ويداري، يتأكد لي عجزه وهو الواعي بأحوال الناس وأغراض الناس وأصول الناس، كنت أقول لنفسي إنه يتيم وأن أمي يتيمة وأنني يتيم، يجمعنا كلنا يتم الفقراء، فلا خدمة الأكابر ولا التضحية من أجلهم تحمينا من غضبهم ساعة الغضب، ولا رضاهم عنا في بعض الأوقات يشفع لنا عندهم أو يجعلهم لنا سندا أو ظهرا يحمينا من الضرب على البطون والأقفية والأصداغ، ومهما دارت الأيام فلن أنسى ما فعله عزت فينا يوم جاء الخفيران يطلبان أبي لمقابلة حضرة العمدة مرسي، كنت في صحبته ورأيته وهو يقف مطرقا والحاج مرسي يوبخه ويهينه دون أن يرد، وكان عزت هناك جالسا على الدكة وإلى جواره سلمان، وعرفت أن في الأمر بطة مأخوذة من سرب البط السارح في الترعة ويدعي عزت أنها تخصه، كنا بالفعل قد تعشينا في الليلة السابقة بلحم بطة، ولم تكن هي المرة الوحيدة التي نتعشى فيها بلحم بطة، لكنها كانت المرة الأولى التي يتهمون فيها أبي بسرقة البط، البط بط ربنا، والترعة ترعة ربنا والسمك سمك ربنا، وزرع الغيطان زرع غيطان ربنا، لكن الدنيا في ذلك النهار بدت وكأنما انقلب ميزانها، قام عزت واتجه ناحية أبي وبكفه الغليظ ضربه فوق صدغه، مال عود أبي فعدله عزت بكف آخر وأنا أصرخ، وأمي التي طلعت من تحت الأرض تصرخ وعزت يركله في بطنه وأبي يتلوى:

ـــ ح أطفحها لك دم يا ابن الكلب يا حرامي

ولولا تدخل العمدة مرسي ما كف عزت عن ضرب أبي، ولولا شفاعات الناس ما تنازل عزت عن تجريسه في الكفر كله بسبب تلك البطة، كان يلهث مثل كلب مسعور ومن بين أشداقه يتناثر اللعاب وأبي مسنود على الجدار مثل خيال مآتة لا يرد ولا ينطق بالدفاع أو الاعتراض، مستسلم تماما وجاهز لتنفيذ الأمر، وكان الأمر في ذلك النهار أمر عزت شلبي:

ـــ يتجرس..

نقل العمدة مرسي نظراته بين شيخ البلد الساكت وعزت شلبي الغضبان وأبي المحكوم معدوم الحيلة وأمي التي تعوي مثل كلبة تلد، كانت في نظراته رغبة في عدم التنفيذ وعلى لسانه موافقة:

ـــ يتجرس.. بس إزاي؟

ـــ زي كل الناس.. لجل ما يتربى ويتأدب.

ـــ أيوه أيوه.. بس مين اللي ح يجرسه يا سي عزت.. حقاشي يجرس المدندش روحه.. أنت ناسي أن هو اللي بينصب الجرسة؟

قالها وضحك فأضحك كل من كان حاضرا في المكان إلا عزت الذي كان غضبانا يتقافز إلى أعلى وشب على أظافر أصابع قدميه وكأنه من الممكن أن يزداد طولا، لكنهم

ضحكوا وأجبروه على الضحك غصبا عنه، وكأنه يسايرهم بالضحك حتى لا يقال إنهم ضحكوا عليه، لكنه تحكم في نفسه فجأة واقترب من أبي، لطشه بظهر كف يده اليمنى على صدره فسمعت صوت الصدر وهو يئن أنه وحيدة وعزت يحذره:

ــ علي الحرام المرة الجاية لتجرس روحك بروحك يا مدندش.. تزف نفسك وتلم عليك عيال البلد ويقولوا حرامي البطة وراك.

ــ خلاص بقى يا سي عزت هو ح يستجري يمد إديه على ريشة من ريش بطك بعد كدة؟

قالها شيخ البلد ليطيب خاطر عزت وضرب أبي كفا على قفاه وهو يأمره بينما يدفعه دفعا للابتعاد عن المكان:

ــ غور من هنا الساعادي جاتك الغم وأنت عامل زي قحف النخل ما لكش فايدة كدة.

وكأنما منحه كف القفا حرية الابتعاد عن المكان فرمح وأنا أرمح خلفه وأمي ترمح خلفنا وتناديه ولا يرد.. وعندما دخل الدار مفتوحة الباب انزوى في الركن البعيد عند باب بيت الأدب وكنا نسمع شهقاته وهو يبكي ولا نجرؤ على الاقتراب، وأنا فكرت في الكيفية التي يستطيع بها أي واحد في الدنيا أن يقوم بتجريس نفسه بنفسه، كيف يطبل ويحدي للعيال والناس وهو راكب حمار الجرسة بالمقلوب وعلى وجهه عجين الدقيق أو الجير وهباب الفرن، ينزل ويطبل فيلم الناس ثم يعاود الركوب ويحدي عمن سرق البطة من عزت شلبي هل كان من الممكن أن يحدث هذا الأمر لنا لو أن الموضوع من أوله لآخره لعبة من ألعاب الكبار لتسويد معيشة الصغار أكثر مما هي سوداء، عزت والعمدة وشيخ البلد والأكابر يرمون بلاويهم على الغلبان الحاوي من أجل بطة، مجرد بطة تائهة من سرب بط سارح على شط ترعة ملك الحكومة، فيها يعيش ويتغذى ويرجع إلى دار صاحبه، وإذا تاهت بطة فمن أدرانا بمن هو صاحبها، وهل يكتب البط اسم صاحبه على لحمه؟ وماذا لو أكل اليتامى فقراء الكفر بطة في ليلة موسم مبارك حتى ولو كانت من بط الأغنياء؟ بيني وبينكم أنا أيامها كرهت نفسي وكرهت عزت والعمدة وكرهت أبي وأمي وشيخ البلد وكرهت الأكابر الساكتين وكرهت البط، لحم البط وشكل البط واسم البط، ذلك أن أبي تكور حول نفسه منذ ذلك اليوم وظل متكورا ملموما على روحه، ساكتا ورافضا تقريبا للأكل والشرب رغم كل المحاولات، ولم ينفرد عوده إلا على درابة النسل يوم أن مات بهمه وغمه وحسرة قلبه وخيبة أمله في أكابر الكفر ذوي القلوب القاسية، مات حسنين المدندش وحملت من بعده هم الاستمرار في الحياة وأنا أكثر يتما، أدفنه وأنا اليتيم وهو اليتيم وأمي وكل فقراء الكفر اليتامى.. الفقراء يتامى يا ناس.. الفقراء يتامى حتى لو كانت لهم أمهات مثل أمي وآباء مثل أبي.

سلمان ابن المدارس دخل الجيش، لبس الميري والفاروقية وزغردت النسوان، رأيته بالكاكي وملابس الحربية، ورأيته وقد وضع على الكتفين نجمتين ذهبيتين وعلى الكاب تاج الملك، هنأته بأدب فهز رأسه بأدب، كان عزت يتباهى به في كل وقت وكل مكان، يتبغدد ويتفاخر بأنه أول من ربى وأول من علم وأول من وسط الأكابر الأكابر لقبوله في المدرسة الحربية التي لا يدخلها إلا أولاد الأكابر، كان سلمان مثل الشهاب الطالع وكان اسمه مثل السهم النافذ تنطق الألسنة به وتكيد الأعداء.

كانت صورة سلمان بالكاكي تتبدل في كل فترة زمنية، ومنها نعرف رتبته الجديدة، وعزت يحوط الصورة ببرواز مذهب يليق بضابط في حرس الحدود، كان يتبغدد على الكل ويكايد العمدة مرسي الذي لم يستطع إدخال أحد أولاده مدرسة الحربية رغم السعي والاستعداد للتضحية بأي شيء، لكنه لم يأتي إلى الكفر أو يذهب إليه أي واحد من ناس الكفر إلا خاله عزت، وعندما يسألونه عن سر غيابه يجاوبهم بنفس العبارات:

ــ هو فاضي لكم يا جموس أبيض؟ دا غرقان لشوشته في شغله ومصالحه هناك.

ــ إحنا كان غرضنا نطمن عليه.

ــ اطمنوا.. سلمان ابن أختي مستقام، بقى بيه رسمي ورتبه بكباشي..

ــ حاجة تشرفني برضه.

ــ معلوم.. هو حد كان يصدق أن كفركم الفقري يطلع واحد بيه زي ابن أختي سلمان؟

كانوا يهزون أكتافهم وقد نفضوا أياديهم من أمره، لم يعد يخصهم ولا كان على ذمة كفرهم ما دام قد طلع وارتقى وامتنع عن المجيء بإرادته التي توافقت مع إرادة خاله الحريص على قرشه حرص اليهودي والذي يقبل الربا من المحتاج إذا طاوله بأي مبلغ ولأي مدة حتى ولو كانت مجرد أيام يسد بعدها الدين والفائدة بحسب ما يحددها عزت شلبي ويأخذ كل الضمانات التي يطلبها.

سامحوني يا ناس كفرنا "الوردي" إن تجاوزت في بعض الأوقات حدي، طوال العمر الذي فات أعرف حدودي وألزمها لا أخطيها أو أعبرها مهما كانت الأسباب، لكنني وقد كبرت وشاهدت الناس والأشياء تتبدل من حولي فيحق لي أن أبوح لكم بما يخفيه صدري، أفكر معكم وأن اعترضتم على أفكاري فاسألوني عن الأسباب، كل شيء يتبدل فلماذا ترغبون في أن أبقى في نفس مكاني ولا أحاول، أنا حسنين ابن حسنين ولتاسع حسنين كما تعرفون، وصفتموهم بنفس الوصف ولم يعترض أي حسنين على صفة المدندش، الدندشة كما قال جدي لأبي مرة تعني الفرح والبهجة وعلى أي مدندش في هذه الدنيا أن يقوم بوظيفته الأصلية الدندشة، ولا مانع من إضافة بعض الأعمال الأخرى مثل توليد البهائم أو حلاقة شعر الحمير أو الندب على

الأموات أو زفة العرسان أو تجريس من أمر الأكابر بتجريسهم، نحن اتفقنا على كل شيء يـــا ناس، وأنا لم أعترض، وشجرة الدندشة ممدودة ونحيلة نحيلة وقد طالت رغم نحـــول عودهـــا وانحنت عندي، وأنا فرعها الأخير أخشى أن تنكسر وقد طالت وطالت رغم النحول، هي على كل حال أطول من شجرة كازورين وتستحق أن تعيش، ولا بد أنهم في المقبرة على حق، من أول حسنين حتى حسنين الثامن الذي هو أبي، يأتون ويسهرون حولي ويطالبونني بالامتـــداد، ويقصدون الخلفة، ومقصدهم يا ناس كفرنا أن تتولـــوا أنـــتم تزويجـــي، زوجـــوني وإيـــاكم والاعتراض على الفكرة، أعرف أنني كبرت وأني فمي يخلـــو مـــن الأســـنان والضـــروس، وأعرف أنني أتوكأ الآن على العصا من فرط ضعفي، لكنني أحمل في صلبي بذرة الحســـنين العاشر، ولي دار يمكن إصلاحها وترميم جدرانها، وكل ما هو مطلوب أن تبحثوا لـــي عـــن عروس تصاحبني بقية ما تبقى لي من أيام فلعلي أمنحها بذرة الحسنين ولعلكم تحصلون علـــى المدندش العاشر، وأنا يا ناس في صفكم، مشغول بكم وبمستقبل ناس كفركم فلو فقدتم بمـــوتي آخر البهاليل، فسوف تكون نكبة، كفر بلا بهلول ولا أمل في ولادة بهلول من صلب بهلـــول، لن أطلب مساعدة الأكابر، أكابر هذا الزمن "الزهري" لا يساعدون الفقراء اليتامى، ربما لأنهم أكثر من الفقراء فقرا رغم الثراء والامتلاك، نفوسهم فقيرة إلى حد يثير الشفقة، وسوف ألجـــأ إلى البسطاء منكم وأولاد الكرام ليدبروا حالي، عيبي الأصلي أنني كنت في بعـــض الأوقـــات أمشي في ركاب السادة ومشاريع السادة، يطعموننني مرة فأصبر من الاتباع وفيا أكثر من كلب وطبعا أكثر من حمار ورعديدا أكثر من أرنب، ولا بد أنني ساعدتهم على اختطافي من نفسي، ولا بد أنني غفلت عن روحي مرة فغبت عن الوجود الحقيقي رغم الوجود بينكم، كـــأنني يـــا ناس أغمضت عيني مرة فتراءت لي بعض الصور وأضغاث الأحلام ثم صحوت لأكتشف أنه قد فات نصف قرن من زماني وانضاف إلى عمري أيام كنت بينكم ولحســـابكم شـــابا طالعـــا فرحانا بروحه وبالحياة، كنت أيامها أحلم بإضافة فرع جديد إلى شجرة البهاليل أولاد البهاليل، هل غيبني الزمن الشلبي كل هذا الوقت على عكس إرادتـــي؟ أو أننـــي صـــدقتهم واشـــتغلت لحسابهم، وهل تنطلي عليكم تلك الكذبة المكررة التي يدافع بها الناس عـــن أنفســـهم عنـــدما يقولون أنه حدث غصبا عنهم أو أنهم فقدوا إرادتهم أو أصابهم سحر؟ حتى لو صدقتم أنتم فلن أصدق نفسي لأنه لم يكن سرابا في سراب ذلك الذي عشته، وشريط صندوق الدنيا لم يتبدل إلا بفعل فاعل أو مجموعة فاعلين، لقد تبدلت الرسوم وتبدل الأبطال، لبس الأنذال ثياب المـــالكين الحاكمين المتحكمين، خلعت الحريم في بيوتهن العالية براقع الزمن الماضي ولبسن براقع من نوع جديد، كأنني درت على كعبي واستدرت فوجدت بدل عنترة والزيناتي خليفة وأبي زيـــد الهلالي ناسا آخرين، أنصاف أبطال وأنصاف رجال ومن رائهم عشرات الطبالين الزمـــارين

المداحين، ومثلما تختفي الحقائق توارى الرجال وراء الجدران أو انسحبوا واندفنوا تحت الأرض ليفسحوا الطريق لكي ترتفع النجوم الكاذبة التي تبرق وتتطفئ مثل فقاعات الصابون.

تعالوا نتأمل البنايات الجديدة في كفرنا الجديد، ونطل على السيارات الغريبة والأجهزة المدهشة والرطانات غير المفهومة وسوف نكتشف أن ما أصاب كفرنا ــ دونا عن كل الكفور المجاورة ــ غريب ومحير وغير محسوب حسابه، فالبيوت المبنية بالطوب الأخضر تهدمت بالفئوس والمعاول، تناثر رمادها وتطاير وتسلل إلى عيون البعض منا فأصابها بالرمد أو العمى أو أي وجع يصيب البصر أو البصيرة، ولأنني باعترافي أشهد أنهم سلبوا من عمري قرابة نصف قرن فلابد أنني أعيش في الزمن الفائت، تفزعني تلك البنايات الخراسانية والبوابات الحديدية المزروعة على امتداد السكة الزراعية من أول زمام كفرنا وإلى حدود البندر من ناحية وإلى زمام كفر الشرفا من الناحية الأخرى، وبدلا من عيدان القمح أو الذرة أو القطن صرت أرى أسياخ الحديد الطالعة من العواميد الخرسانية المنصوبة فوق البنايات وكأنها إعلان عن الرغبة غير المحكومة في معاودة البناء والطلوع، وأنتم بأنفسكم قلتم إن هذه البنايات تبخ الصهد في الصيف وتشوي سكانها، وأنها في أيام الشتاء تجلب البرد والرطوبة وأوجاع المفاصل، فلماذا غير البعض منكم ومنهم بيوت الآباء والأجداد المبنية بالطوب الأخضر يا ناس، طبعا أنا لا أدافع عن داري القديمة التي لم أهدمها أو أفكر في هدمها لأعاود بنايتها بالطوب الأحمر، ذلك أنني لا أملك ولو امتلكت فسوف أتردد ألف مرة، وعيب داري أنها من كثرة الهدم والردم ومعاودة البناء حولها صارت قصيرة، كأنها امرأة عجوز محنية وقد ضمرت وانكمشت، وعيب الوصول إليها هو تلك الأتربة التي تتحول أيام المطر إلى وحل ناعم ولزج، وأنها في الربيع والخريف تتطاير بحسب اتجاه الريح، تتطاير وتوسخ الثياب أو تؤدي إلى كل مواجع الأبصار إذا تفتحت في مواجهتها حدقات العيون، كأنه يلزم لمن يدخل دربنا وكل دروب الكفر أن يرخي رموشه ويداري بجفنيه وبكفيه العينين، يطل إلى مواطئ القدمين ولا يرفع البصر إلى أعلى أو ينظر إلى البعيد، عيبي أنني حاولت أن أنظر إلى البعيد، عيبي أنني فتحت عيني وحاولت أن أكتشف شعاع الشمس في وضح النهار فدمعت عيناي واستشعرت اللهيب، نصحوني بالمراهم والقطرات وما توقفت عيناي عن التدميع، في الحزن والفرح، في الخوف ولحظات الجسارة تدمعان، كأنه مكتوب على أمثالي من الفقراء اليتامى أن نبكي بلا توقف ولا ينفع معنا طب ولا يشفينا دواء، تتزايد في البدن المواجع، وجع في القلب ووجع في البطن ووجع في الصدر وأوجاع في المفاصل، كأنني وأنا الفرع الهزيل المائل آخر المدندشين لولا الرغبة الكامنة في النفس لكي أمتد وأثمر، أترك في الكفر بذرة الحسنين العاشر، وأنا يا ناس لست الشخص العليل الذي يتوكأ على العصا فقط، إنني هو ذلك الطفل الذي أشرك سلمان في أمه، وأنا الصبي الحافظ نصف كتاب الله والشاب الذي قرأ كتب

التلامذة وطلاب الجامعات والأزهر الشريف، والرجل الذي شاهد الأزمنة وهي تتوالى وعمادة الكفر وهي تنتقل من دوار إلى دوار ومن عائلة إلى عائلة ومن فرع إلى فرع، أنا الشاهد الباقي من الزمن القديم أطالبكم بالوقوف إلى جواري ومساعدتي على تحقيق آخر رغباتي مثلما كنت أساعدكم في تحقيق رغباتكم في السابق. ورغبتي مشروعة وممكنة، بنت حلوة تقبلني على حالي وتعاشرني على سنة الله ورسوله، ترعاني وتجفف دموعي وتجاهد أن تنسيني حكاية الأعرابية التي خدعتني وخدعتني وخيب رجائي وعطلتني فلا هي وفت بالعهد وجاءتني ولا هي تركتني لأدبر أحوالي بدونها. بنت حلوة من كفرنا المعشوق تحوطني بأنفاس الأنثى وتدثرني بشالها وتطعمني من صحون دلالها وتعوضني عن كل ما خسرته في سنوات الشباب والرجولة، بنت من كفرنا المعشوق لها طباع الناعسة التي احتملت أيوب المصري وخففت بلواه، قصت شعرها وباعته لتداويه، حملته ولم تفرط فيه رغم المصاعب، ياه.. ياه يا ناس، كيف فاتني أن أبحث عن الناعسة في دروب كفركم وأنا الصبي والشاب والرجل القادر، ولماذا وأنا أيوب المصري الذي يكابد المواجع فكرت فيها، وهل اعتدنا أن نقاوم ونقاوم ونقاوم المواجع حتى يقعدنا البلاء والعجز فنبحث عن شريكة العمر لكي نعاود القيام ونعاود الخلفة من جديد، تهبنا المرأة الصلبة الرقيقة والقوية الناعمة الرغبة في البقاء، تهبنا بالحضور طاقة أكبر من طاقتنا ولعلها تتبهنا بوجودها إلى ضرورة أن نبقى وأن نستمر وأن نخلف للدنيا أطفالا يحملون نفس ملامحنا ويحملون أسماءنا وأحلامنا ويكملون أدورانا إذا رحلنا، أعرف أن نساء كفرنا "المعشوق" أرق من رجاله، وأعرف أنه من غير المستحيل أن ترضى باحتمالي واحدة منهن، واحدة مثل الناعسة تجدد عمر الأيوب المصري وترحم البهلول الفاني من أجل البهلول الآتي، أيها البسطاء من أهالي كفر عسكر، ساعدوني ورتبوا ليلة دخولي للدنيا أو خروجي منها.

يوم خروج الملك من مصر فرحنا بالأخبار وهتفنا للثوار، سمعنا عن محمد نجيب وعبد الناصر والبغدادي والسادات، انطفأت في البندر أنوار قصر الباشا وما عادت سيرته على كل لسان، انفتحت طاقات الأحلام والتهبت الحناجر بسخونة الحماس، وتحدث من لا يملكون في زمام الأرض قيراطا عن أملاك الباشا، تهامسوا عن تقسيمها وتوزيعها على المعدمين، فشعر أمثالي من اليتامى أنهم أولاد البلد ولهم فيها نصيب، رفعنا الرءوس بحسب ما أوصانا عبد الناصر وقد أخرج عساكر الإنجليز، لكنهم عادوا وحاربونا بعد تأميم القناة، وقال البعض للبعض إننا بسلاحهم انتصرنا عليهم، وقال البعض الآخر إنهم هزمونا فلم نصدقهم، صدقنا أم كلثوم وهي تغني لبورسعيد، وصدقنا عبد الناصر وتبدلت أحوال الناس، تجاسر الفقراء وعلموا أولادهم في المدارس بالمجان وزاد في القلب الرجاء، وكنت أنا البهلول الحاوي أزف للناس الأخبار أسمعها في البندر ولا أداريها في سهرات البسطاء أو مجالس

الأكابر، كنت أقول ولا أداري أننا نتساوى عند الله مثلما تتساوى أسنان المشط، وأننا كلنا لآدم وآدم في تراب، لكن الزمن الشلبي كان هناك، ساكنا تحت رماد الكفر ومسنودا على كسل أولاد عوف الذين اكتفوا بالحديث عن عمادة الكفر التي راحت منهم ظلما وعدوانا بسبب البكباشي زميل الأحرار، من دهشتنا كنا نذهب إلى عزت ونسأله عن الأحوال، وكان يجارينا وكان سلمان واحد من الأحرار فنخرج من داره وقد زادت دهشتنا حتى كان ما كان عندما انكسرنا وخابت كل الرجاءات، فر العساكر والضباط وفاتوا سلاحهم لإسرائيل وتوافدت على الكفر جثث القتلى ملفوفة بعلم الثورة، دفناهم وسط البكاء والعويل والندب والتعديد، ولكنه كان هناك من لم يعد ويحسبونه من الأموات، وبين الرجاء وفقدان الرجاء عاشت الأمهات تنتظر الأخبار عن الغائبين، أيامها عرفت سيد أفندي وعرفت منه الكثير من الأسرار، وأيامها أيضا رجع سلمان ولبس الجلابيب والعباءات والطواقي وخلع ثياب الضباط وكانوا ينادونه ويتحدثون عنه بالاسم الجديد، حضرة العقيد، حضرة العقيد استقال من الجيش، حضرة العقيد باع، حضرة العقيد اشترى، حضرة العقيد رمى أساس الدوار، حضرة العقيد قابل المأمور ومساعد المأمور وبواسطته تولى يوسف عمادة الكفر مكان الحاج مرسي، وكنت ألتقي فأتحدث إليه ولا أجده كما كان في سابق الأيام، كانت قد نزلت بيني وبينه ستارة تداريه عني وتحجب الأسرار، ربما كان ثقيلا على لساني أن أسبق اسمه بحضرة العقيد في كل مرة، وربما كان هو نفسه قد كبرت نفسه وصار ينظر إلي باستهانة وعدم تقدير، وكان يحق له أن يفعل كل هذا وأكثر ما لم يكن بيننا عيش وملح وعشرة عمر، تباعدت عنه كما تباعد عني وما عدت أسأل عن أحواله أو أسعى إلى حيث يمكنني أن ألقاه.

سمعت أن سلمان بنى دواره في آخر زمام الكفر من ناحية البندر، كان الدوار يا سبحان الله بناية تفوق كل البنايات التي رأيتها في كل عمري، بوابات من حديد ونحاس مطلي، له سور طويل وعريض حول مساحة لا تقل عن خمسة فدادين وفي الوسط بناية عالية بأبراج وقباب جنب شبابيك وكلها مسكوكة، وسكة عريضة توصل ما بين السكة الزراعية وبوابة الدوار المفتوحة دائما والمحروسة بالرجال ذوي البشرات السوداء وكأنه أخذهم وهو خارج من سلاح الحدود، ناس لهم لهجات برابرة الهجانة الذين كانوا يأتون ويسكنون الكفر في أعقاب كل عراك بين الشلبي والعوف يسقط فيه القتلى من الطرفين أو أحدهما، كان ما بين سلمان وناس كفرنا قد تناقص واختفى أثره، وكنت في المرات القليلة التي قابلته فيها وجها لوجه قد شعرت أن ما بيننا قد تحول إلى سور صلب في طول وعرض سور دواره.

وفي المرة الوحيدة التي نظرت فيها في عينيه وكأنني أسأله عن أسباب التباعد الذي جرى بيننا، في هذه المرة فرت نظراته بسرعة وتشاغل عني بالنظر إلى الوراء قلت لروحي ساعتها: لا تفكر فيه يا حسنين فلا أنت من قيمته ولا أنت من مقامه، ووبخت نفسي لأنني في

بعض الساعات أنسى أبسط حقائق الحياة إلى حد إنكار كل الفروق بين الناس بـــدعوى أننـــا أولاد آدم وحواء، لكن هذه الساعات لا تدوم على أية حال فسرعان مـــا أفيـــق مـــن غفلتـــي وأعرف حدودي، بل إنني في بعض الأحيان لا أدخل الأبواب الموارية أو أدق على الأبـــواب المسكوكة حتى وإن كنت أقصدها ولي فيها مصالح، وكثيرا ما كان يحـــدث أن أرجـــع بعـــد مشوار طويل لأنني وجدت الباب موارباً أو مسكوكا، كان البعض يتندر على أفعالي، يقولـــون إن المدندش يطلب الصدر المفتوح والذراعين المفرودتين ليرتمي في الحضن مســـلما روحـــه وعقله لمن يحتويه أو يتبسم في وجهه، بل إنه كثيرا ما كان يحدث أن أمتنع عن دخـــول درب في دروب الكفر إذا خاصمني واحد من سكانه، أمتنع بإصرار وعناد بغل استرالي ولا أخطو فيه خطوة فيكتشفون أمري ويحاول أهل الخير أن يصالحوني على من خاصمني أو خاصمته، وعلى كل حال فأنا لم أكن لأنشغل كثيرا بمسألة إهمال سلمان لشأني وتخييبه لرجائي فيه، ذلك أن سلمان أراحني وأراح بعض من لا يحبونه وبعض من يحبونه أيضا من أهالي الكفر، لقـــد اختار سكته بعيدا عن زمام الكفر، بنى دواره بين بين، على السكة الزراعية صحيح، إنما في منتصف المسافة بين زمام الكفر وزمام البندر، ولا بد أنه كانت له أغراضه التي تخفى علـــى أمثالي من هذا التباعد، وربما بسبب وجوده خارج زمام الكفر كنت أنساه أحيانا وكأنه ما زال في سلاح الحدود، لكن عزت كان لا يكف عن تذكيرنا به وكأنه لا يوجد في هذه الدنيا شخص يستحق الذكر غير سلمان، وقد كان يبدو لي في بعض الأحيان أن عزت كره الناس في سلمان إلى حد كبير، لكنني لم أكن لأكرهه ولم أكن مكرها على حبه في ذات الوقت، كنـــت أســـمع أخباره من الطرفين وتزداد حيرتي في أمره، ولم أكن أعرف لأي الفـــريقين أنحـــاز، لكننـــي اعتدت أن أسمع:

ــ سلمان باشا عنده خمس مزارع تسمين عجول بسم الله ما شاء الله، خطى على كل الأكابر في الناحية..

ــ ما هو من تجريف الأرض والسمسرة وتجارة الممنوع.

ــ ينقطع لسانك، سلمان باشا كون ثروته من مزارع البط الأبيض والفراخ الحمرا يـــا بو قلب أسود.

ــ يا عم قول يا باسط، دا ساكن في الخلا لجل ما يكون بعيد عن عيون الناس، أنـــت ناسي الكبدة الفسدانة اللي كان بيتاجر فيها أول ما رجع الكفر؟

ــ أبدا.. ما إحنا أكلنا منها وما جرالناش حاجة أهه..

ــ حد عارف.. البني آدم صندوق مقفول، يعني حد مننا كشف؟

ــ على رأيك.. حد عارف.. بس ما يصحش برضه تقول إن له نصيب فـــي تجـــارة الصنف.

ـــ يا عم مش نصيب. دا هو اللي بيجلبه لحسابه ويبيعه لحسابه.

ـــ أتاري الحشيش رخيص..

ـــ ألف لك سيجارة من حشيش الباشا..؟

ـــ لف..

يقولها الواحد منهم وينفجران في الضحك، أشعر أن الخلاف بينهما كان تمثيلية مرسومة لإبلاغي معلومات جديدة عن سلمان، كأنني كنت ما زلت مسئولا عنه بحسب ما يحسبون، كنت أداري ما أشعر به ناحيته وأغير الموضوع، وفي كفرنا وكل البلدان المجاورة يبدأ الأمر بكلام، مجرد كلام يسري في الهواء مع النسيم فتبتلعه الصدور ثم تعاود إخراجه وقد أضافت إليه أي شيء جديد، ولابد أنهم الأعداء الذين نبهونا إلى زيادة الحشيش وكل أنواع الكيف الممنوع بعد أن جاء سلمان ولكن في دواره الجديد، هو مجرد كلام في كلام، صعب أن يدخل العقل وإن دخل لا يثبت فيه وإن ثبت لا يثبت إلا لزمن قصير، وهل يصدق عاقل أن رجلا مثل سلمان الذي تعلم وسافر ولف ودار وخلف من زوجه وبنت خاله عزت، خلف خمسة صبيان وأربع بنات، هل يغامر ويضع سمعة أولاده ومستقبلهم على كف عفريت؟ أي عاقل سوف يستبعد مثل ذلك الادعاء، تجار المخدرات لهم ناس مخصوص، ناس بلا مركز أو مبدأ، إنما سلمان؟ سلمان الذي يركب العربة المخصوص وله سواق مخصوص، دواره محروس بالبرابرة الغرباء وعلاقته بالمأمور وكل رجال الإدارة ظاهرة لكل الناس فهل كنت أصدقهم وينقلب في عقلي ميزان الدنيا؟

ماتت أمي فعزاني فيها كل ناس الكفر، البسطاء والفقراء والأكابر، وكنت أفكر في سلمان، قلت لروحي لو جاء فسوف أسامحه وأفتح له قلبي وأنسى سنوات التباعد والتجاهل، وكان الشيخ تهامي يوشك على إنهاء آخر ربع على روح المرحومة عندما سمعت الأصوات:

ـــ البيه المأمور ومعاه البيه العقيد سلمان..

ـــ اتفضل يا باشا.. اتفضل.. شرفت الكفر ورفعت رأسنا لفوق.. اتفضلوا يا بهوات.

أسرعت وسلمت، تلقيت عزاء المأمور أولا ثم احتضنت العقيد سلمان رغم أنه بدا لي أنه لم يكن جاهزا للاحتضان، طول الشيخ تهامي قراءاته في سورة البقرة ورفرف قلبي بذكريات الزمن القديم، ودعت الباشا والباشا بعد أن ختم الشيخ تهامي قراءته وطالبنا بقراءة الفاتحة على روح المرحومة، كان الباشا سلمان والبيه المأمور قد وصلا وتركا سيارتيهما في "الوسعاية" وكان من اللائق أن أوصلهما وأشكرهما قبل أن يركب كل منهما سيارته المخصوص ويسوق به سواقه المخصوص، سلمت على البيه المأمور أولا ثم احتضنت سلمان غصبا عني ودون قصد فهدأني بخبطات كفه على ظهري، وانفلت لساني أشكو له:

ـــ أمنا إحنا الاتنين ماتت يا سلمان باشا يا خويا.

تخلص هو من حضني وطالبني بأن "أشد حيلي"، وبسرعة ركب سيارته وأشار للناس قبل أن ينطلق السائق بالسيارة، وفي طريقي إلى الدار كنت محاطا بالأوفياء من أهالي الكفر الذين امتدحوا سلمان باشا المتواضع الذي لم ينس الجميل القديم وقد كبر في السن والمقام وأصبح رفيقا للحكام، وافقتهم ولم أحدثهم عن خجلي من نفسي لأنني في اندفاع عواطفي ساويت نفسي به وتمسحت فيه، صحيح أن أمي أرضعته ضمن من أرضعت من عيال الكفر قبلنا وبعدنا، لكنها كانت بالنسبة له ولهم مجرد مرضعة، ولو أحصيت من أرضعتهم لأصبح لي عشرات الأخوة من كل العائلات بينما الواقع يقول إنني رجل وحيد، وحيد وبسيط وساكن في مكاني دون أمل في أن أتبدل مثل كل شيء يتبدل ويتغير في كفرنا "اللبني".

كانت أمي مرضعة عيال الكفر تقول عن البعض منهم "شبع من بعد جوع" وكانت تصف عزت شلبي بهذه الصفة أكثر من كل ناس الكفر، كانت تكرهه دون مواربة وكان يتشكى منها لي ولطوب الأرض، ويهددني بأنها ما لم تكف عن تطويل لسانها كلما قابلته فإنه لن يتراجع في أن يقطعه لها من "لغلوغه"، فأضاحكه وأعده بإسكاتها عنه دون أن أفعل، كنت أتمنى أن تعاود فضحه وأنا أثق أنه لن يجرؤ رغم كل ما يدعيه أن يضربها بشيء مهما حاول، كانت أمي مرضعة عيال الكفر كله، ولم تكن تملك أكثر من ثديين نافرين ممتلئين على عود نحيل نحيل هو في الحقيقة وبحسب ما كان الكل يقول جلد على هيكل عظمي، إنما صدرها يا سبحان الله أعجوبة، صحو ونفور وامتلاء أكثر من أثداء البنات العذارى والنسوة الوالدات، وكان لها لسان مشهود له بدقة الوصف، إذا وصفت رجلا من رجال الكفر بصفة رددها الأهالي دون تردد، وإذا قالت عن امرأة أو بنت أي شيء صار حقيقة لا تقبل المراجعة، وربما بسبب ذلك كان الأكابر يتوددون إليها أكثر من أبي، وربما بسبب وجودها كنت أشعر بالحماية وأتجاسر على الكل، كنت أحصل على السماح دائما، ولا بد أنها كانت قادرة على حمايتي وحماية نفسها بعد موت أبي، لقد انخطف أبي مني وأنا في السن التي لا تدرك طبائع الخلق وكيفية التعامل مع الناس، وتولت هي أمري، وبدلا من مصاحبة أبي وقد انخطف صاحبتها وبحت لها وباحت لي بكل ما كان يدور في عقلها من أفكار، ومن بين تلك الأفكار فكرتها عن عزت الذي كان السبب في موت أبي قبل الأوان ناقص العمر، كانت تكرهه وكان يكرهها، وكانت لا تداري كراهيتها له وإن حاول هو أن يداري. كان يعابثني في بعض الأحيان وينادينني:

ــ تعالى يا حسنين يا بن أم بزين العب مع سلمان.

وكنت أطاوعه على مضض، كنت أشعر أنه يسخر منها وربما يعيرني ولا أفهم، أداري عنها وإن كنت أرغب في البوح لها وأخاف أن أغضبها، لكنها عرفت الحكاية وذهبت

إليه في ظهيرة يوم السوق وردحت له ما طاب لها الردح والناس تسكتها ولا تسكت، ولما زاد ردحها وسكوته قال حضرة العمدة مرسي الذي كان يمر بالمصادفة:

ــ وماله يا بت... ببزين ببزين، أصله منكاد منك، مراته ما لهاش ــ أنت انخبلت يا عزت؟

ضحك الناس مجاملة لحضرة جناب العمدة وصار من المألوف أن ينادوني بعض الأولاد الذين يكرهونني بنفس النداء.. "يا بن أم بزين ".. ولم أكن أغضب منهم، كنت أضحك وأسألهم إن كانت لأمهاتهم ثديان مثل أمي فيشعرون بالخجل ولا يعاودون مكايدتي مرة أخرى.

كان المرحوم أبي يعابثها في وجودي ويمد كلتى يديه ناحية صدرها مهددا فترمح ويرتج صدرها وهي تفر، وإذا طالها وأمسك بها نبهته إلى وجودنا أنا وسلمان فيفلتها وربما يطلب منا أن نخرج ونلعب في الغيطان، كنا ننسحب أنا وسلمان في بعض الأحيان وفي بعض الأحيان لا نفعل تنفيذا لأمرها هي، وكانت تقول لأبي في بعض المرات وهي تضحك فينور الضحك وجهها وتحمر خدودها وهي تهمس:

ــ الولد سلمان دهه بيغير منك يا حسنين، بيغير عليا أكثر من ابنك حسنين.

وكنت أتعجب وأسأل سلمان إن كان يغار عليها بالفعل فيجاوبني بغيظ:

ــ يا رب أبوك يموت.

الغريب الغريب أنني لم أكن أغضب من سلمان رغم حبي لأبي، لم أكن أغضب ربما لأن أبي قال لي إن الدعاء لا يجوز إلا على الظالم والمفتري، كنت أشعر باطمئنان بأن دعاء سلمان لن يجوز أو يؤثر في عمر أبي الذي لم يظلم في حياته أحدا بحسب ما كان يؤكد لكنه مات، وفي نفس يوم موته قابلت سلمان وسألته إن كان أبي يستحق الموت فلم يرد، غضبت من سلمان من أجل أبي الذي مات بسبب دعائه وبسبب عزت شلبي خاله الذي أخذ سلمان وضرب أبي، وكنت أدعو الله لكي يميت عزت مثلما أمات أبي لكنه لم يستجب لدعائي رغم تأكيدات أمي أنه رجل ظالم ويفعل كل ما يغضب الله والناس.

هلل أولاد كفرنا لعبد الناصر وكنت أعرف الأسباب، لكنه عندما جاء السادات وتحمس له أولاد شلبي لم أفهم سر الحماس لأن الرجل كان في بداية أيامه ما زال، لكنه انكشفت لي الأسباب عندما ترشح العقيد سلمان الخارج من الجيش بعد النكسة لأسباب يعرفها الجيش ولا تصل إلى أمثالي من فقراء الناس، رشح الباشا العقيد نفسه لمجلس الشعب، وكانت سيرته أيامها لا تسر عدوا ولا حبيبا على حد أن الكل تنبأ له بنفس النتيجة:

ــ ساقط ساقط.. هو حد عاد بيقبله في كل الناحية؟

كان سلمان قد تباعد عن كل ناس الكفر إلا أقل القليل أولاد عمه الـذين لهـم عنـده مصالح أو له عندهم مصلحة، وصارت رؤية الناس له نادرة وإن كان الكلام عنه لا ينتهي أبدا وكل ما نسمعه أو نراه منه يؤكد لنا أنه مشغول بمصلحة نفسه قبل كل شيء، وعندنا في كفرنا مثل يقول إن من أحب نفسه كرهته الناس، فما بالكم بواحد طالع من قلب ناس الكفـر وداس على الكل وعطل مصالح الكل وأنكر الكل وكره فيه طوب الأرض؟ أول شيء عمله سـلمان ولم ننتبه إليه في البداية كان سيطرته على سوق المواشي، صحيح أن القرش في السوق صياد ماهر، وصحيح أن المسألة تحتاج إلى شطارة، لكن أن يتحول السوق كله إلى سـلمان وحـده فهذا هو الأمر الذي لا يرضاه العبد ولا يرضى عنه الرب، استأجر سلمان مجموعة سماسـرة صغار واستأجر مجموعة من الأشرار وقطاع الطرق الشطار وقطع الطريق بواسطتهم علـى كل التجار، من يطاوع يأخذ رزقه المعلوم ويتوكل على الله راجعا مـن حيـث أتـى، ومـن يعترض فإما الضرب والإهانة أو سرقة ماله بالغصب وفي وضح النهار، أشياء مثـل هـذه رأينها بحدقات عيوننا، وشكايات سمعناها من الغرباء بآذاننا، والغريب أن سلمان كان يعلنـه على ألسنة أعوانه في كل أنحاء البندر، ولابد أنه أقنع المأمور أيامها بأية طريقة بحيث سكت على كل ما كان يجري، وربما لم تصل للمأمور نفسه أخبار البلاوي التي كانت تحـدث فـي السوق أو عند مداخل البندر مع التجار والفلاحين، ولابد أن البعض منهم لم يفكر في الشـكاية أصلا، وأن البعض الآخر حاول ولم يفلح، أو القليل منهم اشتكى ولم يجد لشكواه فائدة فكـف عن معاودة المجيء إلى السوق، يعلم الله ونعلم نحن أيضا أن سلمان اسـتولى علـى السـوق لحسابه هو، كان يقف في أحد أركانه ويشير بيده لأعوانه فينفذون ما أشار به، أصبح السـوق سوقه، سوق سلمان أو سوق الباشا أو سوق سيادة العقيد، هكذا عيني عينك تحول السوق القديم الذي كنا نسميه سوق الخميس إلى سوق خصوصي يتحكم فيه بماله ورجاله ويمـارس الظلـم وقهر الناس، حتى عندما فكر الناس في البيع والشراء في الأسواق الأخرى للبنادر المجـاورة تصدى لهم قطاع الطرق ومنعوهم من الخروج بمواشيهم أو محاصيلهم أو الدخول بالبهائم إذا اشتروها من خارج الزمام إلا بعد الدفع الإجباري والإهانة والتهديد، صار سـلمان عصـابة منظمة وصار الناس ضحايا لظلمه، بالسعر الذي يحدده هو يشترون ويبيعون، وفي كل حالـة امتناع أو اعتراض نسمع عن تقليع الزرع أو تسميم الماشية أو حرق البيـوت أو الأجـران، وضاق الحال بالناس وانكتمت الأفواه مخافة الانتقام، وأصبح دوار سـلمان مـزارا للنسـوان المظلومة والرجال الفقراء اليتامى، يتقبلون شتائمه وإهاناته مقابل بعض الحق المسلوب، تحول سلمان إلى كابوس لا يحده حد ولا يشعر بأي نوع من أنواع الخجل، وزادت أملاكه في وقت قصير على حساب اليتامى، وهؤلاء الذين كانوا يملكون القوة والقدرة على مواجهته لم يفعلـوا أي شيء، ربما لأنه كان يتعامل معهم بشكل مختلف، ذلك أنه في حدود ما أعرف من نـاس

كفرنا لم أسمع شكاية من أحد الأكابر أو المالكين، كان أكثرهم ينكرون دعاوى الفقراء ضده بل إنهم كانوا في بعض الحالات يكذبونهم ويدافعون عن شرف سلمان، ولا بد أن الأكابر اتفقوا معه على أن يبعد عنهم أشراره مقابل عدم تدخلهم في شئون البسطاء من سكان الناحية كلها، ومثلما يهمد الجسد بعد مشوار طويل همد الأقوياء القدامى واستسلموا للراحة وما عادت لديهم الرغبة في الصراع، استكانوا وأسلمونا لسلمان فاستسلمنا بدورنا لمصيرنا وأكلنا لحمه الفسدان الذي كان رجاله يبيعونه في الأسواق، وأكلنا سمكه المشكوك في أمره لأنه لم يكن هناك سواه، واشترى الفقراء قماشه المخزون لأنه لم يكن في السوق غيره، حتى من يبحثون عن بذور الزراعات وجدوها عند سلمان فأخذوها دون تردد أو اعتراض، يدفعون الثمن الذي يحدده وكأنهم يتجنبون معاداته بأي ثمن، وانقسم الناس في كل الناحية إلى عاجزين وقادرين، مالكين ومعسرين أكثر مما كان عليه الحال قبل ذلك بكثير جدا.

"سبع صنايع والبخت ضايع".

قالتها لي أمي وأنا راجع من مشواري القريب عند عباس أبو خشبة في نفس دربنا المزنوق والضيق والمسدود من ناحية البحر، دار عباس أبو راجية أو أبو خشبة بينها وبين دارنا داران وخرابة وشرم يفوت نفر واحد بجنبه للناحية الأخرى، ويبدو أنني كنت حزينا وإن حاولت أن أداري، لكن أمي تقرأني بنظرة، مجرد نظرة تكشف لها فرحتي أو حزني، نجاحي في تحقيق غرضي أو فشلي، انبساطي من الناس والدنيا أو قرفي، كأنني صفحة من كتاب مفتوح أمامها لا ينسك أبدا، ودائما دائما تواسيني أو تهنئني قبل أن أقول لها ما جرى بمثل أو بمطلع غنوة أو كلمة أو موال، لكنها في تلك الليلة قالت ما قالته وكأنها تندبني وتندب كل المدندشين من أول حسنين حتى الحسنين الثامن الذي هو أبي وزوجها المرحوم، جلست ساكتا لا أنطق وتوقعت منها أن تسألني لكنها لم تفعل، كانت تنكش بحراية وسط الدار بعود حطب قطن جاف، كأنها كانت تخط على الأرض مصيري أو ترسم على الأرض اعترافها بهزيمتها وهزيمتي، كنت لا أرغب في أن أبقى أمامها لأزود همها وهمي فقمت، طلعت إلى السطح وأسندت ظهري إلى جدار مصطفى الفار فبان لي وجه القمر الباقي بعد أن اختفى ثلثاه أو ثلاثة أرباعه، لكنه كان هناك يرسل بعض الضوء ويسمح لي بأن أميز المسافات وأسطح الدور الظاهرة، لم أكن غضبانا من عباس أبي راجية رغم أنه كسفني ورفض طلبي، كنت أعرف أنه سوف يفعل، لأنه مثل كل ناس كفرنا "البدوي" يعمل حساباته في مسائل الزواج والطلاق أيضا، ولا بد أنه أمسك نفسه من الغلط وقال أحسن ما كان يمكن أن يقوله رجل في الرد على طلبي:

ــ يا حسنين يا خويا احنا بنعزك صحيح، وانت تستاهل كل خير صحيح، إنما راجية؟ راجية يا حسنين؟ أنت عارف أمك ما تأخذنيش، هي صحيح قريبتي.. إنما، مين في كفرنا

تقدر تعاشرها يا حسنين؟ أمك لسانها متبري منها، وكل ما بيتقل عليها العيا كل مـــا بيطـــول أكثر ما هو طويل، وراجية بنتي مش ح تطيق تعيش وياها في الدار، أمك دي عايزة واحـــدة قالعة رأسها وعادمة ناسها.

الغريب الغريب أنني كنت أنتظر مثل هذا الكلام وأكثر منه. كنت أعارضها في الفكرة لكنها كانت تلح:

ـــ بس أنت روح يا حسنين، ريح قلبي يا ضنايا، عباس ابن خالتي ومـــش ح يلاقـــي أحسن منك، روح يا حسنين واطلبها منه، عايزة ارتاح من ناحيتك قبل ما ودع، عبـــاس إيـــه ابن أبو خشبة ده كمان، هو يطول؟ جته لهو على أبوه.

كنت أسمع مثل هذه العبارات كل صباح وأتحمس للفكرة ثم أتراجع على التنفيـــذ فـــي الليل، وأنا في بعض الحالات يختل ميزاني فأطاوعها في الغلط ربما من كثـــرة الـــزن علـــى الدماغ أطاوعها، وربما لأن طاعة الأم واجبة، وربما بسبب مرضها ورقادهـــا الـــذي طـــال صرت أميل إلى طاعتها، أكثر، أطاوعها لأريحها وأريح نفسي من كثرة الزن، ولأنها أمـــي، وهي راقدة ولا تكف عن تكرار نفس الكلام فقد ملت رغم عدم تصديقي إلى تصديق كلامهـــا هي:

ح يرحب و ح يوافق، أنت مستقل بروحك ليه يا حسنين، دانت ابن المدندش، هو فيه في الكفر كام مدندش يا حسنين.

وراجية بنت عباس حلوة، تستحق التفكير فيها، شعرها أسود ونـــاعم ومجـــدول فـــي ضفيرتين غليظتين، عودها فارع مثل شجرة بأس وصوتها فيه بحة غير كل البنات، شـــملولة وشاطرة وعندها صحة تهد جبال، ثم إنها مؤدبة أدب طبيعي فهل كنت أكره أن أحاول مجرد محاولة أو أنني كنت أستكثرها على روحي، ربما فكرت فيها لغيري، وربما أكون قد حلمـــت بها لنفسي لكنه كان حلما بعيدا بعيدا، هو حلم يخجل الواحد من نفسه إذا فكر فيه، ولا بد أنني كنت أفكر فيها أكثر مما فكرت فيها أمي، كنت أراها وهي تدخل دارنا، تملأ زيرنا من مـــاء الصهريج أو تطحن قمحنا في ماكينة الطحين أو تخبز في فرننا بمساعدة بعض الحريم، لكنني كنت أفسر الأمر في حدود أنه نوع من الشفقة بأمي أو العطف عليها والرحمة أو عمل الطيب في امرأة طال رقادها وليس لها بنت تساعدها في مثل هذه الأعمال، على هذا النحو كنت أفكر في أول الأمر، لكن اعتيادي على رؤيتها واكتشافي بعد كلام أمي عنها أنهـــا بالفعـــل فـــارت واستدارت وأنا غفلان، كأنها طلعت من تحت الأرض بين يوم وليلة فصارت صبية ناضـــجة نضوج ثمرة برتقال بدمه ظاهرة ومكشوفة في فرع شجرة جنب الدار، كنـــت أتلفـــت حـــولي وأسأل نفسي إن كنت بالفعل أليق بها أو تليق بي، وأفكر إن كان زمن الزواج قد فاتني بالفعل لأنني تخطيت الأربعين منذ سنوات، أمثالي تزوجوا والبعض منهم زوج أولاده وصـــار جـــدا

فهل يحق لي أن أبدأ الآن وقد فاتني ما فاتني من عمر، أبدأ وأنا أحمل فوق همومي وما صار إليه حالي وجود أمي الراقدة التي تحتاج أكثر مني إلى من يرعاها ويخدمها ويسهر على راحتها، وأضع في حساباتي ضرورة أن يحتملها وقد صارت من كثرة الرقادة عصبية وغاضبة دائما ولسانها مثل لسان حية أو عقربة لا يكف عن اللدغ، لا تترك سيرة الأحياء أو الأموات تتسلى بها:

ــ أنا عارفة إيه اللي كان وقعني في أبوك. كان كبر وفاته قطر الجواز وأنا كنت صبية ولسة طالعة، لكن إتجرأ وطلبني، خدني وعشت معاه ع العيش والملح، لقيته كبير في السن لكن زي العيل اللي لسة ما اتقطمش أبوك مات وهو لسة ما اتقطمش يا حسنين، كان يا ولداه محروم من الأم، اتولد يتيم وما رضعش لبن أمه، ولا عاشلوش غيرك يا حسنين، المدندشين مش عيلة يا مدندش، دول فرع مايل ومدلدل وعزمه خيبان، ما هو أنت أهه، عزمك خيبان، وقليل قليل إن ضربت جدرك في الأرض ومددت وفرعت زي اللي اتولدوا معاك، فاكر سلمان يا حسنين، أهو بقى جد.. وأنت مش قادر تكمل نص دينك وتعيش زي خلق الله، ملعون أبوك لأبو اللي خلفوك.

وكنت أحفظ لساني معها قدر استطاعتي لأن المولى سبحانه أوصانا برعاية الأم واحتمال الأم وطاعة الأم، كنت لا أرد على شتائمها فتشعر أنني احتملتها وتدعو لي بالستر فأنظر إلى أحوالي وأسأل نفسي عن الستر الذي لم يتحقق أبدا، أي ستر ودارنا مندرة ووسط دار وفرن وقاعة خزين معتمة وبيت أدب عريان، وحتى لو تجرأت وفكرت في إكمال نصف ديني فأي ناس ترضى بدار مثل دارنا وفيها أمي وليس فيها عزال أو نحاس، وعروق خشب سقفها تحتاج إلى تستيف جديد وكتل لدعم خشبها القديم، وأي نوع من الأمراض هذا الذي أصابها وأقعدها كل هذه السنوات فصرت أنفق ما أحصل عليه لأداويها وأطعمها وأكسوها، وأي بخت هذا الذي أورثني فقره وفقرها وجعلني أبدأ حياتي بسداد دينه ودينها بينما يرث الكل، ميراثي بالمقلوب يا ناس، ميراثي هو دفع ما لم آخذه من أحد فأي عدل هذا وأين هي طاقة القدر التي يتحدثون عنها لأطلب منها ما ظللت أداريه عن الناس وعن نفسي من إحساس مؤكد بالظلم دون ذنب أو حتى وعي يسمح بارتكاب ذنب، هو مجرد ميراث بالمعكوس، وأنا بيني وبين نفسي فتشت في نفسي فلم أجد لأي واحد من خلق الله ظل غل أو حسد، وكل ما كنت أتمناه وأرجوه أن ينعدل حال الدنيا المقلوب، حال الدنيا مقلوب يا ناس، فهل تظهر لي طاقة القدر أم أن موعد طلوعها في أواخر شهر رمضان؟ وهل ظهرت لأي واحد من الفقراء اليتامى طاقة القدر؟ أم أنها عندما تظهر له يتحول إلى واحد من المالكين القادرين الآمرين الذين يحكمون ويتحكمون في خلق الله، ينقص الفقراء واحدا ويزيد الأغنياء واحدا لكنه في زحمة الدنيا لا يتبدل شيء، يبقى الحال على ما هو عليه رغم ظهور طاقة القدر للناس، لو

ظهرت لي لطلبت العدل كل العدل على الأرض، تتوزع الأرزاق بالعدل ويتوزع الشغل بالعدل، وتتوزع دور الكفر بالعدل ويتوزع زمام الأرض المملوكة بالعدل وبالعدل نأكل ونشرب ونكتسي وننزوج ونخلف ونعيش ونموت، نصبح مثل جيوش النمل أو النحل عرايا وقد تساوينا في كل شيء، لكنه يلزم أن يتميز من يملكون العقل أكثر، تكون لهم شارة يعرفهم الناس بها، هل من الممكن أن تظهر لي طاقة القدر وتنتظرني لأطلب كل هذه الطلبات أو أنها كما يصفون تنفتح لحظة واحدة وتستجيب لطلب واحد، المال أو الصحة أو الزوجة والنسل أو الهداية أو رضا الله وخلقه، الستر أو القناعة والرضا بالمقسوم، شيء من بين هذه الأشياء فقط تسمح به طاقة القدر التي تنفتح في ليلة محسوبة وللموعود بها دون بقية خلق الله فهل أفكر أنا الذي ضاع حظه في هذه الدنيا، أفكر في طلب واحد أطلبه من طاقة القدر إذا ظهرت لي، سوف أطلب العدل.. العدل أساس الملك، نعم سوف أطلب تحقيق العدل في كل أركان كفرنا وفي كل البنادر، ولو سمحت طاقة القدر فسوف أطلب تحقيق العدل في كل الدنيا، العدل وحده لأن العدل أساس الملك.

ــ عدل إيه ولهو إيه يا حسنين؟ وملك إيه، وما تسيب الملك للمالك يا خايب يا بن الخايب.

رأيتها قبالتي بعودها النحيل النحيل وصدرها البارز، كنت قد اعتدت أن أراها راقدة أو مسنودة إلى مسند أو جدار خلال كل السنوات الماضية، لم تكن تستطيع أن تنصب طولها بغير مساعدة، وحتى بالمساعدة كانت تعجز عن الوقوف دون انحناءة كبيرة تقترب من حالة الركوع، كنت أشفق عليها وأحاول أن أداريها عن عيون الناس في تلك اللحظات، ولا بد أنني ارتعشت خوفا عندما أيقنت وتحققت أنها هي بشحمها ولحمها وأن ما أراه حقيقة وليس طيفا ولا مناما أو حلما، كانت هي نفسها التي تقف منصوبة العود ومرفوعة الرأس مثلما كانت في السابق قبل الرقاد، بل إنها كررت ما قالته مرة أخرى وهي تقتعد الأرض قبالتي دون مساعدة:

ــ عدل إيه يا حسنين يا بني اللي أنت داوش روحك بيه؟ أنت ح تفضل أهبل كدة على طول؟

ــ هو العدل عيب يا أمه؟

سألتها وقد انمسحت من ذاكرتي مسألة مرضها وزال خوفي، كنت أحدثها وتحدثني مثلما كان يحدث في السابق قبل أن ترقد، سبحانه القادر على كل شيء أنساني أسخف أيامي وأيامها وأصعبها وأقساها، هو مجرد نسيان مؤقت ساعدني على الاحتمال وقواني على الكلام معها، قالت أمي:

ــ سلمان أخوك مص دمك ودمي شوف لك حل معاه.

ـــ أعمل له إيه يا مه؟

هات لي منه حق اللبن إلى رضعه.

ـــ لبن إيه بس يا أمه؟

ـــ بلاش.. البد تحت باطه، خده سكة وأطلع وياه ووراه.

ـــ يا مه.

ـــ بلاش.. خليه يتوسط لك ويوظفك وإن ما وظفكش افضحه، أنت تقدر تفضحه يا مدندش..

ـــ يا مه..

لم تكمل كلامها، أشارت إلى القلة فناولتها وساعدتها حتى ارتوت ونظرت في ضوء ما تبقى من القمر فرأيت عينيها تتراخيان وجفنيها ينطبقان، ناديتها فلم ترد، رفعت سبابة يدها اليمنى إلى أعلى ففهمت أنها تطالبني بإرقادها في نفس المكان، ساعدتها على الرقاد وكان جسمها دافئا وطريا، سمعت صوت المؤذن ينادي المؤمنين لصلاة الفجر وسمعت نحنحات الخارجين من دورهم يوحدون الله ويصلون على محمد، وبدا لي أنني استعدت ما كان يجري قبل طلوعها على هذا النحو فشعرت بالخوف منها ومن نفسي واستعذت بالله، تعجبت لأنها طلعت فوق السطح دون مساعدة من أحد وأنها كانت تقف منصوبة القوام لأول مرة منذ سنوات، كان شعاع النهار يكشف الأشياء وأسطح البيوت وكانت هي تتمدد أمامي في صمت مرتاح، ومن فزعي ناديتها:

ـــ أمه.. أمه يا أمه.

لكنها لم ترد.. وكان الضوء قد كشف لي تقاطيع وجهها أكثر، كانت بشرتها أكثر بروزا وعودها النحيل النحيل قد امتلأ، هزتها لأوقظها وأحملها إلى فراشها فاهتزت ولم ترد.. عاودت هزها فاهتزت ناديت وناديت بأعلى صوتي لكنها كانت قد أراحت نفسها من كل رد.. صرخت ورأيت الناس تصعد الدرجات وأحدهم يبعدني عنها ويصحيني من غفلتي صارخا:

ـــ المرحومة ربنا اختارها.. وحد الله يا مؤمن.

كان أمل البسطاء أن يرشح أي واحد من الأكابر نفسه في المدة الباقية لكي يمنحوه أصواتهم يوم الانتخاب ويحجبوها عن سلمان وساعتها يضيع أمله في النجاح، لكن سلمان كان يتحرك في الوقت الضائع، ينصب الشوادر ويؤجر مكبرات الصوت ويجمع الناس من حوله، وكان أتباعه يشيعون أنه على علاقة بالأكابر الحكام وأن السادات بنفسه زاره بدواره وأنه سوف يكسب بالتزكية، وكان هو يتحدث بنفسه عن نفسه قائلا إنه طالع من بطن أرض كفرنا الطيب، وأنه سوف يصلح ما أفسده المفسدون وأنه سوف يبدأ بالسوق الذي سيطر عليه بعض الغرباء والوضعاء الذين فقدوا ضمائرهم وأجروا من يتعرض للتجار الشرفاء، وأنه لولا

رجاله لبارت تجارته مثل غيره لولا همة الرجال، وادعى أن هناك جماعة من الناس تقصد تلويث سمعته وإفساد حياته وهو النقي الطاهر الذي اعتزل الناس واختار مكانا يبعد عن مسقط رأسه وبنايات البندر حتى لا يقع تحت تأثير أهله وهو الذي يسعى لخدمة الكل دون تفرقة أو تمييز:

ــ والناس دي مش عارف عايزين مني إيه؟ عايزيني أنسحب م الترشيح ويخلى الجو لواحد من بتوع زمان، واحد من اللي كانوا ماسكين الكرباج للناس الغلابة وبيشغلوهم سخرة؟ لأ.. مش ح أنسحب، مش لجل خاطري، أبدا.. لجل خاطركم أنتم، أنا غرضي أخدم الكل ف زمام الناحية، ح ابني مركز لبحوث الزراعة ويزيد المحصول.

بدل الفدان ما يرمي تسع قناطير قطن ح يجيب عشرين وبدل ما يدي عشر أرادب قمح ح ينتج عشرين وثلاثين، التقاوي موجودة، وح نعمل مخبز آلي ومصنع علف ومزارع سمك، وبكرة تشوفوا الفرق بعنيكم، ح نزرع تفاح أمريكاني بدل الجميز والتوت.

كانوا يصدقونه ويصفقون لأنه كان يبرع في الكلام، وأنا لولا معرفتي له كنت أصدقه خصوصا عندما كان صوته يختلج وعيناه تدمعان من فرط الانفعال، وكان يحكي عن نفسه وكيف تربى أول ما تربى في بيت حسنين المدندش الذي هو أبي وبرعاية وعطف الست حرمه التي هي أمي التي لولاها ما عاش، كان يقسم بأغلظ الأيمانات أنه لن يكون ناكرا للجميل أبدا مهما حاول الأعداء، ولابد كان يقصدني بين من يسميهم الأعداء، ففي المرة الوحيدة التي رآني فيها نظر ناحيتي وأشار بإصبعه:

ــ أهه.. حسنين أخويا أهه، ابن عم حسنين قصادكم أهه، أخويا في الرضاعة وعمري ما ح انكره، بامد له إيدي كل ما أشوفه، لكن يا سبحان الله، ضحكوا عليه وغيروا قلبه من ناحيتي، اللي يفتحه يلاقيه أسود من قرون الخروب، شوفوا لابس مبهدل إزاي، قصده يحرجني، يقلل من قيمتي، طيب يا حسنين قصاد الناس دي كلها أنا فاتح لك صدري أهه، وعفا الله عما سلف، تعالى في حضني وربنا شاهد عليا وعليك، شايفين بيبص لي إزاي؟ بيكرهني.. بيكرهني يا ناس وأنا مادد له إيدي وقلبي عليه، بيكرهني يا ناس.. بيكرهني.

بيني وبينكم أنا ساعتها انخرست، نزل على لساني سهم الله وما عرفت أن أرد عليه، أنا المشهور بطول اللسان انخرست وعجزت عن الكلام، وساعتها عرفت إن الكذب المسبوك المزوق يقدر أن يخرس الصدق العريان، كنت أشعر أنه عراني أكثر من عري الثياب التي كنت ألبسها والتي كنت دون أدنى شك أخجل منها وسط الزحام.

قال واحد من الأكابر بعد أن شكوت له حالي:

ــ رشح نفسك قصاده واحنا نقف وراك ونساعدك بالفلوس. كان أول مرة أسمع فيها هذه الفكرة، ورغم أنني سمعتها فقد كدت أن أنفض آثارها من أذني قبل أن تصل إلى دماغي

وأقلبها مثل كل الأفكار التي تصلح للتنفيذ، صحيح أنني مسكين ولا أملك ما أخشى عليه من الضياع فماذا يأخذ الريح من البلاط؟ لكن هل أقبل أنا على نفسي أن أتحول إلى مسخة يلعب بها أكابر الناحية ضد سلمان؟ هل أرشح نفسي ضده ثم يتضاحك ناس كفرنا وكل الكفور المجاورة على الطبال الزمار الحاوي، الرداح النداب البائس الذي تجرأ ووقف في سكة الأكابر بأصابع الأكابر الآخرين؟ وهل أساوي نفسي بيني وبين نفسي مع الكذوب المراوغ المخادع القادر على أن يلعب بالبيضة والحجر، هل أضع رأسي البسيط النظيف في مواجهة رأسه اللامع القادر على التزييف؟، رفضت أن أناقش الفكرة فقال الكبير:

ــ لك حق وشك ينزرد ويزرق يا مدندش، أنت راجل غلبان صحيح بس نضيف، إنما ده.. دا تعبان شراقي لسانه بيبخ سم ناقع فين ما يفوت.

ولابد أن كلام الكبير قد وصل إلى قلبي ومسه مسا خفيفا، ذلك أنني شعرت بسخونة دمعتين تتحركان على غير إرادة مني وتعبران خدي وأنا الذي ما كنت أبكي، حتى وأنا أندب دون بكاء، هل كنت أبكي على حالي أو على سلمان؟ ربت الرجل على ظهري مواسيا وضاحكني فتجاوبت معه وصرت أضحك، هز الرجل دماغه وقال بعد فترة كدت أنسى فيها سلمان وأنسى نفسي.

ــ إحنا ح نوقف قصاده واحد عبره، واحد مالوش قيمة خالص في كل الناحية، إن كسبه تبقى مسخرة وحش وسط ما يرفعش رأسه بعدها أبدا، وإن خسر تبقى مرمطة وقلة قيمة، عارف مين أوطى واحد في الناحية يا مدندش؟

ــ لأ.. مين؟..

ــ ح أقولك بعدين.

لم يقل لي وإنما رأيت بعيني رأسي ما لم يخطر على بالي أو يرد في خيالي حتى في الأحلام، رأيت واندهشت مثلما اندهش كل ناس كفرنا وناس الكفور المجاورة في نواحي الناحية، ومن لا يندهش إذا كان الوحيد الوحيد الذي استخدم حقه في الترشيح ضد سلمان هو شحيبر ابن الكلاف؟ شحيبر الذي كانوا يقولون عنه "بتاع" الأرض والذي طول قامته ثلاثة أشبار دون زيادة بمقاس شبر سعيد الكموني، ثلاثة أشبار بالفعل دون مبالغة وفي حالة المبالغة نقول "شبر ونص" طبعا شحيبر لم يفعلها من تلقاء نفسه ولا كانت فاتت على خياله في الأحلام، ولا بد أنهم أقنعوه وناولوه ما لم يكن يحلم بأنه يناله قبل أن يذهب وفي آخر يوم وآخر ساعة لقبول طلبات الترشيح بعد أن قال الكل أنها طابت لسلمان بالتزكية، قلت لروحي وأنا أراه في البندر مزفوفا ومحمولا على الأعناق ومن أمامه طبال وزمار وراقص بالعصا وغازية من سنباط ترن صاجاتها وتطلب النقوط للرجل الغلبان الذي رشح نفسه باسم الفقراء

ومن أجل الفقراء، قلت لنفسي بيني وبين نفسي "كان من الممكن أن أكون مكانه" ولا بد أن الخبر طار في كل أركان الناحية مثل السبرتو أو البنزين.

كل الناس ما لم يكن أكثرهم عرفوا "شحيبر"، كل من سافر بالقطار إلى طنطا أو شبين رأى شحيبر، كل التجار والأفندية والمزارعين شافوا "شحيبر" ابن الكلاف، دكك المحطة أخذت من بدنه وعلمت عليه، من في كل الناحية لم يعرف شحيبر؟ كان أكثر شهرة من شاي الشيخ الشريب أيامها، كان يجلس من أول طلوع شمس ربنا وحتى قطار التاسعة والنصف مساء، يجلس على نفس الدكة أو يبدلها إذا أراد، يجلس وينتظر وصول أي قطار من أي الاتجاهين فيتدحرج على رصيف المحطة حتى يصل إلى أحد أبواب القطار، يمد يده إلى أي شيء تطوله، سلة أو قفة أو طفل أو حقيبة أو "خرج"، يطلب السماح من صاحب الشيء، ثم يلفعه على كتفه أو ظهره ويرمح، يبدو لكل من يراه مثل "حرامي الحلة" الحامل ما يداريه، لقمة أو خنفساء أو صرصار، يحمل الحمل ويجري فلا تظهر منه غير ساقين قصيرين متسارعين في اتجاه باب المحطة، ودائما دائما ما كان يجبر صاحب الثقل المحمول على الجري في أعقابه أو استمهاله بعض الوقت حتى يلحق به، لكنه مع النساء كان يتأنى ويتبختر على مهل فتسبقه المرأة وتستعجله ولا يتعجل أبدا، دماغه لا تلين أبدا وكأنه بغل استرالي، يحدد أجره ولا يتنازل عنه أبدا حتى ولو حصلت مصيبة أو قامت بينه وبين أي إنسان خنافة، حركته خفيفة ولسانه ثقيل في الكلام، وعزمه في الحمل أكبر بكثير كثير عن مظهره، فكم شهدوا له بحمل ثقل يعجز عن تحريكه رجل بشوارب أو رجلين في بعض الأحيان، وكانوا يسخرون ويقولون:

هو شال حاجة؟ دا منه للأرض.

ــ لأ ورجليه زي عجل الونش عارفة سكتها.

ــ سبحان الله، صحيح.. كل ذي عاهة جبار.

وحكايات شحيبر وأي شحيبر مع الناس فوق رصيف السكة الحديد أو شوارع البندر تحتاج إلى راوي بربابة، هي حكايات بسيطة تليق بأي شخص بسيط، تراه سهلا وبلا قيمة ثم تقترب منه وتتعامل معه فيظهر لك شخصا آخر، شخصا غويطا ومشحونا بوعي غير محسوب حسابه، وهل كان سلمان أو أحد رجاله يفكر أن شيالا قصيرا مقطوعا وساكنا على رصيف محطة بندر منسي في ناحية تبدو منسية سوف يفعل ما فعل لمجرد أن بعض الأكابر فتحوا له الأبواب وقالوا له: قدم اسمك ورشح نفسك ضد سلمان ففعل وكبرت في دماغه ولم يتنازل أبدا رغم أنه عاش كل سنوات عمره مسكينا بين المساكين يسعى من أجل اللقمة له ولعياله والثوب يستر بدنه وأبدانهم، صحيح أن "شحيبر "بحسابات الكل كان يملك "عرق الصبا" لكن ما فائدة "عرق الصبا" لشيال أكثر من مساعدته على حمل ما يحتاج إلى حمله

أصحاب الحاجات؟ وهل كان عرق الصبا يقدر مثلا أن يعينه على إزاحة هموم حياته أو إبعادها عنه؟ لقد ظل عرق صباه عطلانا وقاعدا على دكة رصيف المحطة حتى أوقفه بعض الأكابر الخبثاء بغرض الضحك عليه وعلى سلمان فاستقام عوده وبدا للناس أنه أطول مما كانوا يحسبون وأن قدرته على السعي في الكفور والأنحاء لضمان أصوات الأهالي كانت أكبر من قدرات سلمان، وسبحانه الواهب القهار الذي ألهم من فكر في الأمر قبل غيره وساعد "شحيبر "على الانتصاب.

في كفرنا "السوقي" حسب الناس أن المسألة نكتة في أول الأمر، مجرد نكتة علاجها بسيط، دعوة من حضرة جناب العمدة الذي هو ولي أمر شحيبر مثلما هو ولي أمر كل ناس الكفر الذي انولد فيه شحيبر، ثم بضع كلمات من اللوم أو التهديد والوعيد أو الاستهجان لأننا في النهاية أولاد نفس الكفر ولا يليق أن نقف ضد بعضنا ونضحك علينا الغرباء، وقد فعل العمدة ذلك بالطبع عدة مرات، لكن شحيبر كان قد تبدل، كبرت دماغه وما عاد يخاف التهديد، وكانت الأيام تمر وآخر موعد للتنازل يقترب والولد يعاند مثل بغل استرالي، جربوا رشوته وزودوا قروش الرشوة أو آلاف جنيهاتها فلم يستجب، على العكس كان يخرج ويبوح للناس بكل ما سمعه فيكسبهم في صفه، والواقع أن شحيبر كسب عطف الناس بسبب عناده وقدرته على مواجهة التهديد بكل شيء ولأبعد حدود التهديد مثلما كان قادرا على رفض الوعود والإغراءات التي لو صادفها في كل عمره السابق لزحف على بطنه لينال عشر معشارها ويحمد الله، عاند شحيبر بكل عزمه على العناد، وعاند بعزم غيره أيضا ممن كانوا ضد حكومة السادات لأسباب لا نعرفها رغم أن الرجل انحنى أمامنا جميعا أمام صورة عبد الناصر، انحنى ووعد بأن يحافظ على سياسته ويمشي على طريقه ونظامه، لكن هؤلاء كانوا لأسباب تخصهم لا يصدقون الرجل، وربما أرادوا إنجاح شحيبر لكي يصبح مثل لقمة خشنة وضئيلة في حلق كل أعضاء المجلس الكبير بناسه الكبار، وكان هناك أيضا أولاد الأكابر القدامى الذين يحملون ــ رغم إلغاء الألقاب ــ لقب الباشا والبيه، هؤلاء القدامى كرهوا عبد الناصر والسادات ومن قبلهما محمد نجيب، كان تحديد ملكياتهم في الأرض الزراعية قد أوشك أن يساويهم مع صغار الملاك من أمثل سلمان والناس الشلبي.

كان هؤلاء وهؤلاء يجمعون التبرعات ويقيمون السرادقات ويضعون اللافتات باسم محمد شحيبر مرزوق الكلاف الشهير بشحيبر ورمزه النخلة، يأتي شحيبر وقد لبس الكشمير اللائق وطالت قامته وهو يرفع كلتى يديه بالتحية للناس ردا على التصفيق والهتاف، لم يكن شحيبر يملك القدرة على الكلام أمام الناس، كان في الغالب يكتفي بالوجود في المكان ويتولى من يتحمس الكلام بدلا منه فيهز رأسه استحسانا أو يقاطع الكلام بعبارة أو عبارتين:

ــ لا.. أنا ح أزود المدارس واعلم عيال الفقراء بلاش.

ـــ قوللهم اللحم الفسدان اللي اتباع في السوق مين اللي جابه؟

ـــ حشيش إيه ومخدرات إيه؟ إحنا نعرف الكلام ده؟

ـــ إزاي بقى.. مهما حصل.. أنا واحد منكم وأقل منكم كمان، أنا لسة يا ناس شـــيال على محطة السكة الحديد..

كان الناس يهتفون باسم شحيبر ويحملونه على أعناقهم ويدورون في شوارع البنـــدر بمكبرات الصوت التي تدعو الناس لانتخاب "النخلة" التي هي رمزه، وكانت الحريم في بعض الأحيان تزغرد، وعند الانصراف كان البعض يقول للبعض أن شحيبر ســـوف يأخـــذها مـــن سلمان، ويضيفون أن دوار سلمان المبني يفوق من حيث الاتساع والتجهيزات كـــل قصـــور الأكابر القدامى من الباشاوات والبهوات في كل الناحية والنواحي المجاورة، كان من الواضح أن سلمان سوف يخسر بسبب أفعاله وتباعده عن الناس وثروته التي يشك الكل فـــي شـــرعية مصدرها وهو من الناس الشلبي الذين لم يسمع بهم أحد قبل جيلنا بجيل أو جيلين في أحســـن الأحوال، لكن سلمان كان يبعث أنصاره إلى رءوس العائلات ليدفعوا لهم مئات الجنيهـــات أو الآلاف ليقوموا بتوزيعها على الأفراد ويسألوهم نفس السؤال الذي لا رد عليه:

ـــ بقى معقول أن شحيبر يتكلم باسم عيلتكم في البرلمان؟ شحيبر؟

وكان الكبار يطرحون على الصغار نفس السؤال ويطالبونهم باختيار "المسدس" رمـــز سلمان، وكان البعض يبوح بما جرى والبعض يداري ويعد باختيـــار "النخلـــة"، وفـــي يـــوم الانتخابات تأخر ناس وجاءت ناس، لكن من تأخروا كانوا أكثـــر ممـــن حضـــروا، وســـمعنا إشاعات عن تقدم شحيبر في الكفور والنجوع والقرى وتقدم سلمان في البنـــدر وفـــي كفرنـــا الشلبي، وقال البعض أن شحيبر تقدم في كل نجوع الناحية والبندر والقرى البعيـــدة، وتبـــادل الفريقان الاتهامات والتهديد بالطعن في الانتخابات إذا جاءت في غير صالحه.

هل مات سلمان في جلده وغاب عن وعيه خلال اليومين بليلتين التي جرى فيها فـــرز الأصوات؟ كانت معركته صعبة وقاسية عليه وعلى أنصاره لكنه فاز بفارق هزيل، فـــارق لا يكاد يشعره بأنه نجح بحق، نجاحه كان أقرب إلى الفشل إذا وضعنا كل الشكوك في الميـــزان، ولا بد أنه لم يفرح بنجاحه كما كان يحلم ويحلم أهله وناسه لكنه على كل حال نجـــح وانفلـــت وفتح باب دواره لكل من أراد أن يذهب إليه قبل أن يسافر بعد أيام لا ندري لماذا، ذهب إلـــى دوراه ناس لتأدية الواجب ولجبر الخواطر أيضا، كان البعض منهم يذهب ويعود ليقـــول إنـــه كان يداري ضحكته في "عبه "أو "كمه "يبارك بحسب ما يسعفه الكلام، وســـلمان فـــي كـــل الحالات يهز رأسه ويردد نفس العبارة:

ـــ كتر خيركم.. كتر خيركم.

يزعم البعض أنه كان يقولها شاكرا لمن ساعدوه، ويزعم البعض الآخر أنه كان يقولها عتابا أو لوما ناعما لأنهم أجهدوه وجعلوه يسعى بكل الوسائل المسموحة والممنوعة في الخفاء والعلن ليغطي على من خذلوه وتمنوا أن يضحكوا كل ناس الناحية عليه أكثر مما ضحكوا بسبب ذلك النجاح الهزيل الذي حصل عليه.

لعل ما هون الأمر على سلمان هو أن شحيبر لم يطعن في نتيجة الفرز، بل إنه قالها لبعض من حرضوه على ذلك قائلا بحسم:

خلاص.. مش ح أطعن ولو انطبقت السما ع الأرض.

كان قد ركب دماغه عناد البغل الاسترالي، أو كان قد تعب هو الآخر من دخول معركة لا كانت له ولا كان لها، أو ربما فهم الملعوب الذي شارك فيه مدفوعا بأيديهم وإرادتهم، وربما ــ وهو ما شاع وتردد ــ حصل على المقابل الذي يكفيه ويكفي أولاده، ومن كان يصدق أن شحيبر سوف يمتلك في أي يوم مثل هذا الدكان الكبير الذي انفتح أمام باب المحطة وانكتب على لافتته "بالنيون" "شحيبر وأولاده.. للأحذية والمداسات" وكان يجلس في عصر كل يوم على مقعده أمام المحل ويمارس لعبته القديمة التي كان قد أبطلها، ففي أي وقت كنت تراه ممسكا بين إصبعية الإبهام والسبابة بقطعة من العملة المعدنية، يحرص أن يريها لكل من يحيطون ليتأكدوا من سلامتها قبل أن يضغط بإبهامه الخشن على سطحها العلوي بينما سطحا السفلي مسنود على ثنية السبابة، يضغط بعزمه فيمسح الكتابة وصورة النسر أو الصقر، فيقولون إنه ما زال مالكا بين كفيه قوته القديمة، وأن "عرق صباه" ما زال قادرا على إثبات وجوده.. تماما مثلما كان في السابق يفعل بأي عملة فضية يطلب منه صاحبها أن يمسحها فيمسحها ولا تعود صالحة للصرف وقد انطمست الكتابة وصورة الملك.. أي ملك.

في كفرنا "الفرعوني" يظن الناس أن مداومة رؤية الأموات في الأحلام هي نذير بالموت القريب أو نهاية الأجل، ولأنني أعيش منذ فترة طويلة مع الأموات بحيث كنت أراهم في أحلامي وأستعيدهم فأفكر فيهم في صحوي، قلت لنفسي إنها بداية النهاية، ولأن الموت على رقاب العباد ولأنه لكل أجل كتاب، ولأنني ومنذ البداية كنت منذورا للموت فأنني لا أشعر بالخوف أو الرهبة من مواجهته، ولابد أن البهاليل أمثالي يعشقون الحياة على حافة الحافة إلى حد الاستهانة بالحياة نفسها أو بالموت نفسه، لقد وجدتني هكذا دون قدرة على المحافظة على شيء، ربما لأنني لم أجد في حوزتي أو من حولي أي شيء يدعوني لأن أحافظ عليه، ولأنه لا يطلع إلى العلالي إلا من يملك سلما للطلوع، ولأنني عزيز النفس وإن شح زادها فقد كنت أعيش بينكم أيامي يوما بيوم وساعة بساعة ولحظة بلحظة، عشتها وتعلقت بها لأشبع منها وأتشبع، أفعل ما يرضيني ولو أغضب الأكابر، مؤمنا بأن العمر واحد والرب

واحد، وأنه لا يأخذ الروح إلا خالقها، حتى عندما كنت أمثل دور التابع المطيع كنت أفعل ما أريد وأرغب، وكانوا في أغلب الأحيان يسمحون لي بمساحة من العفو أو المسامحة عندما أخرج عن حدود المسموح، وكانوا يبررون ذلك بكلام زائف عن عقلي الملطوش أو لساني المفلوت لأنني بهلول، كنت أسمع مثل هذه الأوصاف وأتمادى في الخروج عن حدود المسموح، آخذ حقي وبعض حقوق الفقراء، هو نوع من خلط الجد في الهزل أو عجين الهبل مع الشيطنة ونادرا ما كانوا يكتشفون ما لا أرغب في كشفه لهم، وكأنه كان بيني وبين الأكابر عقد غير مكتوب لكنه محسوس بأن نتعايش على هذا النحو، أنا في الهامش وهم في البؤرة، أنا في الظل وهم في مناطق الضوء، أنا في منطقة الصدق الخالص وهم في مناطق الأكاذيب المحبوكة والمسبوكة باقتدار، وأنا بلا أملاك أو رغبات في الحيازة وهم أصحاب كل الأملاك وكل الحيازات.

ـ "اللي يتشحت بالبق يتآكل بإيه يا حسنين"؟.

سألني وأنا أمشي إلى جواره وأحتمي بظله من سخونة الشمس، احترت ولم أجبه وظللت محتميا بظله من سخونة الشمس، لكنني بعدها فكرت وعرفت أن الفم الذي يطلب إحسانا أو صدقة غير الفم الذي يمضغ ويميز طعم الأشياء ويستمتع بمذاقها، كأنه صعب أن يستمتع الإنسان بخبز استجداه بلسانه، وأنا كنت أراه في كل أحلامي يحمل الخير ويعطيني، لا ينتظر سؤالي، وكأنه داخل في خلايا عقلي وعارف كل ما أحتاج إليه، اللقمة أو جرعة الماء أو الثوب الواقي من البرد أو السخونة، كان في كل منام يعطيني وأفسر أحلامي لنفسي فأقول أنا عطايا الأموات خير آت، ويعطيني وآخذ منه دون أن أطلب أو أستجدي، لكنه في الآونة الأخيرة كان يدعوني للرحيل معه، يغريني بمولد السيد البدوي أو زيارة البندر أو حتى الذهاب إلى عمدة كفرنا القديم الذي سمعت اسمه دون أن أشهد زمنه، كنت أسارع بمرافقته في خلاء الزراعات وأستمتع برفرفة النسيم من حولي وأراه وقد عبأ النسيم جلبابه الأبيض فانتفخ وصار مثل مظلة كبيرة تحمله إلى أعلى، ومن مكانه كان يمد يده ليأخذني، يطالبني بأن أسمح للهواء بأن يملأ جلبابي ويحوله إلى شبه مظلة تحملني وأوشك على الموافقة لولا أنني أنتبه في الحلم وأفسر لنفسي ما يعنيه الصعود إلى أعلى، لا أطاوعه وأكتفي بالنظر إليه وهو يرتفع مثل بالون أبيض، يرتفع ويرتفع حتى يختفي في الفراغ البعيد ولا أراه، وساعتها في الحلم أحلم أنني فسرت حلمي وأنه ما زال في العمر بقية، هو أبي من يأتيني ويشاغلني كل ليلة قبل تمام الاختفاء، أصحو من منامي فأحدث طيفه الهربان الذي فاتني ولم يقدر على البقاء ليحميني من هؤلاء الذين أهانوه وظلموه وهزموه بشكل مهين، أقول إنه كان من اللازم أن يقاومهم، أن يعترض، أن يرد على إهاناتهم بإهانات مماثلة، أود لو دارت عجلة الزمن إلى الوراء لأراه وأصرخ فيه، أدعوه لأن يبقى من أجلي، يرعاني ويداريني، أحدثه عن الخواء الذي أصابني

برحيله وأقول له إنه عندما يبقى فلا بد أنني سوف أصير وسط ناس الكفر رجلا معدودا، كنت أرضى ببقائه ولو كان عاجزا أو ضعيفا أو هزيلا أو حتى ساقطا في حسابات الناس لكنه كان من الممكن أن يكون بالنسبة لي ضرورة. كيانا محسوسا يا ناس، يصعب أن أصفه لكم بالكلام، يكفي أنه كان بوجوده قادرا على حمايتي من معايرات الرجال:

ــ أصل أنت تربية أمك يا مدندش.

كنت أرد عليهم وأردح لهم وأهينهم وأعدد للناس مخازيهم حتى يفر الواحد منهم من المكان معلنا أنه أسلم واستسلم، لكنني لم أنتصر أبدا أبدا على من شاكسني بمثل هذه العبارة، كنت أشعر بالهزيمة الكاملة رغم ما يبدو للناس من أمارات الفوز، كان موت أبي الذي يغازلني في الأحلام هو نقطة ضعفي وعار وجودي الذي ورثته منه، عفا الله عنه وحاسب هؤلاء الذين ظلموه وكرهوه في الدنيا ودفعوه لأن يستسلم قبل الأوان.

وكنت أراها وقد جاءت بصدرها الممتلئ وعودها النحيل وقد أوشك على الامتلاء قليلا لكنه ما زال يحتفظ بنحوله، تناديني بصوتها فأطل ناحيتها وأراها وقد أخذت في حضنها بنت حلوة من بنات كفرنا، أي بنت حلوة من بنات كفرنا، كل بنات كفرنا حلوات وفي المنام أحلى، وأمي تأتيني وقد ألبست البنت الحلوة ثوب الزفاف الأبيض ووضعت على رأسها طرحة الزفاف البيضاء. وفي وسط الزحام أرى وجه المأذون وأرى الشاهدين وأسمع صوت سلمان وهو يعترض:

ــ ما يتجوزهاش وهو حافي أبدا، ما يتجوزهاش وهو حافي يا ناس.

وانتبه أن سلمان يقصدني وأنني بالفعل أقف حافيا وبلا مداس، أسعى بين زحام الناس وأسألهم عن أي مداس أو مركوب قديم فلا يسعفني أحد، بل إنهم كانوا يستخدمون مداساتهم ومراكيبهم في الدوس والضغط على القدمين الحافيتين، يمعنون في الضغط وتناديني أمي ويعترض سلمان طريقي إليها والبنت الحلوة في ثياب العرس، أشعر برءوس المسامير الطالعة من مداساتهم ومراكيبهم وهي تنغرس في لحم القدمين، أصرخ وأمد يدي في اتجاه أمي النحيلة فيعترضني سلمان، يتضخم سلمان وقد استند إلى دواره الكبير فصار في حجم الدوار، يصبح سلمان دوارا له أبواب مفتوحة ونوافذ ومساحات من الفراغ وبنايات بقباب وأعمدة ولا أرى سواه، يخرج لسانه الطويل ويكيدني به مثلما كان يفعل وهو صبي صغير، أتذكر في المنام أن سلمان الحي قبالتي ميت منذ سنوات فأغيظه بذاكرتي.

ــ أنت ميت يا سلمان.. أنت ميت.

ويجاوبني من باب دواره المفتوح:

ــ ميت حي.. ميت حي.

أقوم مفزوعا من منامي فأبسمل وأحوقل وأرفض الرقاد مخافة أن ألتقي بسلمان مرة أخرى وقد تحول إلى دوار، أتعجب من تكرار مطاردته لي في رقادي وقد رحل تاركا للدنيا خلفة من الأبناء والأحفاد، أعجب لأنه يضن علي ببنت من بنات كفرنا لتكون للعجوز في آخر أيام عمره الونيس والجليس والعوض وبها يكتمل نصف ديني.

وكنت أرى جدي الذي اشتهر في الكفر بحرصه على وضع وردة أو زهرة فوق أذنه اليمنى وقد علقها بجزء من فرعها بين نسيج الطاقية وخصلات شعره التي تسكن تحتها، أراه وقد تحول إلى سلطان آمر ومن حوله الأتباع والعسكر، يأمرهم فيأتوا بأبي مقيدا بالحبال ومتهما بسرقة البطة أو الأوز والأرانب وزراعات الغيطان، يدافع أبي عن نفسه بأنه جاع فاحتال على الدنيا ولبس ثياب الشطار لتستمر الحياة، يخلع جدي الحسنين السابع زهرة الأذن أو وردتها ويرميها على الأرض ويوبخ أبي لأنه جعل نفرا مثل عزت شلبي يهينه أمام الغرباء ولم يرد له الإهانة، يشعر أبي بالخزي والعار، يحكم جدي على أبي بالموت غضبا ويأمر العساكر بأخذه وأنا أصرخ من ظلم الحسنين السابع فيناديني ويعاود القراءة من كتاب بلا غلاف تقول صفحاته أن الشرفاء الشرفاء يعابون لأنهم يفسدون شرفهم بسرقات صغيرة وتافهة لا تفيد، وأنه في نفس هذا الكتاب يترك لأكابر اللصوص حق ارتكاب كل الخطايا وقتل النفوس وهتك الأعراض وسلب الأموال من جيوب الفقراء والطعام من أفواههم لأنهم بلا شرف ولا يصح تأنيبهم أو لومهم، أطاوع جدي وأخرج معه لكي يعطيني زهرة أو وردة أضعها ــ مثلما كان يضع زهرته أو وردته ــ في أعلى أذني اليمنى وأدس عودها الصغير تحت قماش طاقيتي، وأصير في هذه اللحظة أنا هو الحسنين السابع لولا أن سلمان يأتي ويخطف الزهرة أو الوردة فيتحول سلمان إلى جدي وأعود كما كنت أنا الحسنين التاسع وقد فقدت أبي.

وكنت أرى سلمان أيضا في كل مراحل عمره، في طفولته وصباه وشبابه، وفي رجولته وكهولته وقبل موته وقد انحنى عوده واستند على كتف واحد من أحفاده، كنت أراه وأحزن من أجله فيعايرني قائلا في كل مرة.

ــ احزن على حالك.

فأحزن ثم أنفض عن نفسي حزني وأفيق لروحي لأكتشف أن ما كنت أراه هو حلم أو كابوس عبيط، وأتعجب من أمر تلك الأحلام التي تتشابه مع ما أراه وأنا صاح لروحي، ومن تلك الحقائق التي أعيشها وهي تشبه أمثال تلك الأحلام أو الكوابيس، يختلط كل شيء بكل شيء، الأحلام البعيدة مع الأحلام القريبة، الكوابيس مع الواقع الذي أراه، يصبح ما أراه في الواقع وما أحلم به مجرد عجينة واحدة أتحسسها في الصبح والظهيرة وفي بدايات الأمسيات ونهايات الليل الساكن وساعات ما قبل الفجر، يختلط كل شيء بكل شيء، ويزدحم الدماغ

بأشكالهم القديمة، أمي وأبي وجدي وسلمان أخي وشقيق عمري وكل من ماتوا واندفنوا وأراهم في الأحلام ثم أعاود رؤيتهم في الصحو، أقول إن الأموات يحاصرونني ويطاردونني ويمهدون الطريق لرحيلي إليهم ويمنحوني في كل مرة الإشارة لأقطع ما تبقى بيني وبين الناس والحياة من خيوط، يساعدونني على أن أنهي ذلك التعلق العبيط بما تبقى لي من أيام لأنه قليل قليل ويدعو للغضب والاعتراض عليه بالرحيل والخلاص..

لكنني بعد الفجر أراني وقد قمت واغتسلت وذهبت إلى زاوية أولاد عوف أتوضأ وأصلي فجرا جديدا حاضرا مع الجماعة ثم أجلس على رخامة الصهريج وأرى البنات العذارى الصاحيات في البكور وهن يحملن الجرار أو الصفائح الفارغة يتنادين بدلال ويتضاحكن بدلع وقد تنبهن لوجودي، يتباطأن أو يتعجلن الخطوات أمامي، كأنني عريس مرغوب يستحق أن تعرض عليه كل البنات جمالهن ويتركن له الحق في الاختيار، أشعر بالحيرة فكل بنات كفرنا جميلات، وأنا البهلول الحاوي والزمار الطبال الباقي أقدر أن أعطي نسلا جديدا ليكون لكفرنا "الغفلان" ولا يزال طبالا جديدا وزمارا وبهلولا اسمه الحسنين العاشر.. وحدوا الله.

فهرس

الموضوع	الصفحة
الناس في كفر عسكر.....	
الإهداء.....	
الحنان الصيفي.....	
حكاية شوق.....	
البحر الرمادي.....	
حكايات المدندش.....	